

# الجالحظا

ومجتمع عصره  
في بغداد



بقلم  
جميل جبر

دكتور في الآداب

دار صادر  
بيروت





# الجاحظ

ومجتمع عصره  
في بغداد

بقلم  
جميل جبر  
دكتور في الآداب

دار طائر  
بيروت

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

## توصلة

لعل الميزة الرئيسية التي تفرّد بها الجاحظ هي اتخاذ المجتمع مادة لقلمه ، وقد شقّ بذلك تياراً جديداً أتبعه الكتاب من بعده ، كان أولهم حيتان<sup>(1)</sup> .

أجل لم يوجّه الجاحظ كل نتاجه الضخم نحو الدراسة الاجتماعية ، شأن ابن خلدون أو غيره من المحدثين ، بل تناول بيئة عصره بالنقد والوصف والتحليل في أكثر ما كتب . فما عدا المؤلفات التي تناولت النقد الصرف أو الدراسة « كالبخلاء » و « ذم النكّاب » و « رسالة الفيان » و « رسالة المعلمين » وما إليها ، قلّما خلا له أثر من علاقة وثيقة بمجتمعه في كل وجه وكل مضمون . كان ينتقل ، هارثاً قارة وحاداً قارة أخرى ، بين مختلف مواضيع ، من الثقافة ، إلى الأديان ، إلى الأحزاب والشييع والطبقات . وكان لظروف حياته الخاصة التي أتاحت له أن يعايش كل فئة من فئات الشعب والحكام ، أن جعلت من نتاجه أفضل وأصدق مرآة لعصره .

على رغم هذه الفريدة في الاتجاه الأدبي لم يُدرس بعد الجاحظ ، على هذا الوجه ، دراسة مفصلة وافية . لقد عني دارسوه خصوصاً بطريقته الأدبية وأسلوبه العلمي وآرائه الدينية ونهجه الساخر وتوجيهه الفلسفي ، وأغضوا عن درسه المجتمع ، على أهميته الأكيدة .

(1) هو مؤلف كتاب « الإمتاع والمؤانسة » المشهور .

ففي عصر الالتزام الأدبي الذي نعيش فيه ، وقد شاء الأديب الحق أن يكون شاهداً على عصره ليأتي نتاجه من لحم ودم ، يجدر بنا أن نعود إلى الملاحظ ، أول أديب عربي أذى شهادة جامعة عن مجتمع عصره ففتح الطريق أمام الأدب الملتزم المعاصر .

تلك هي أهم الأسباب التي حدثنا على معالجة هذا الموضوع بالذات رغم وهرة المسلك وتعدد التحقيق .

جميل جبر

## الجاحظ في حياته وبينته

### في البصرة

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي . لقب بالجاحظ لبحرٍ عينيهِ ، أي نتونها . وكان هذا اللقب لا يُعجبه ، على ما يظهر ، فيتبرم عن يدعوه به ، ويجهد نفسه لكي يُقرَّر في أذهان الناس أن اسمه «عمرو» ، وأنه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم ، وأن اسم «عمرو» أرشق الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجاً .

كان قصير القامة ، دميم الوجه ، يُضرب المثل ببشاعته<sup>(1)</sup> . ولكنه كان خفيف الروح ، حسن العشرة ، ظريف النكات ، يتهافت الناس إلى الاستمتاع بنوادره . ولد أبو عثمان في البصرة حوالي سنة 776 (160هـ) ، ومات فيها سنة 869 (255هـ) . وقد اختلفت آراء المؤرخين بصدد تاريخ ولادته وموته إلا أن معظمهم اتفق على ما ذكرناه .

وتضاربت الآراء كذلك بشأن أصله ، فمنها ما يُفيد أنه كناني ليشي ، ومنها ما يؤكد أنه مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ، وأن جدّه أسود يقال له فزارة وكان جماًلاً عند ابن قلع<sup>(2)</sup> .

نشأ يتيماً ميّالاً إلى العلم ، فكان يخالط المسجدين<sup>(3)</sup> في البصرة تارة ، ويختلف

(1) لو مسح الخنزير مسحاً ثانياً ما كان إلا دون قبح الجاحظ .

(2) تاريخ ابن عساکر .

(3) طائفة من العلماء وأرباب النحو واللغة كانت تجتمع في مسجد البصرة .



إلى أحد الكتائب طوراً. وقد روى شيئاً عن ذكرياته في ذلك العهد قال<sup>(1)</sup> :

«رأيت كلباً مرة في الحي، ونحن في الكتاب، فعرض له صبي يُسمى مهدياً من أولاد القصابين، وهو قائم يححو لوحه، فعض وجهه، فنقع ثيبه دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خذه، فرمى به ملقياً على وجهه، وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحة، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفرع، وبقي طائر القلب، ثم خيط ذلك الموضع، ورأيت بعد ذلك بشهر، وقد عاد إلى الكتاب، وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيط، فلم ينبح إلى أن برئ، ولا هز، ولا دعا بماء، حتى إذا رآه صاح: ردوه، ولا بال جرواً، ولا علقاً، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير».

تدلنا هذه القصة على دقة الملاحظة التي تميز بها الجاحظ منذ حداثة، فأماها التمرس من بعد، بقدر ما تدلنا على الطبقة الاجتماعية الفقيرة التي نشأ فيها. فهو عصامي، كان يعمل ويتعلم في آن. ويذكر بعضهم أنه كان يبيع الخبز والسمك بجوار نهر سيحان (في البصرة).

ويروى أن أمه كانت تؤثر أن ينصرف بكتبه إلى التجارة ولا يضيع عليه وقتاً ثميناً في الدراسة، فجاءته يوماً، بدل الغداء، بطبق كراريس، فقال:

«ما هذا، قالت: هذا الذي نجي، به، فخرج مغتماً، وجلس في الجامع وموسى ابن عمران جالس، فلما رآه مغتماً، قال له: ما شأنك؟ فحدثه الحديث، فأدخله المنزل، وقرب إليه الطعام، وأعطاه خمسين ديناراً، فدخل السوق، واشترى الدقيق وغيره، وحمله الخمّالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، وقالت: من أين لك هذا: من الكراريس التي قدمتها إليّ، ثم اتصل بعد ذلك بابن الزيات فأقطعه أربع مائة جريب في الأعالي، قال الحاكم: وهي تعرف بالجاحظية إلى الآن»<sup>(2)</sup>.

(1) الحيوان، ج 2، صفحة 5.

(2) ذكر المعتزلة لابن المرتضى، صفحة 38.

## في بغداد

لم تكن آفاق البصرة<sup>(١)</sup>، على رجبها، لتكفي أبا عثمان، فانصرف عنها إلى بغداد، عاصمة العالم الإسلامي، في ذلك العهد. وكانت تجذب إليها نخبة المفكرين وأهل الفن. فهذه المدينة ما كانت يومذاك مركزاً من أهم المراكز الاقتصادية في العالم وحسب، بل كانت أيضاً وخصوصاً عاصمة العلم والأدب والجمال. وكان تساهل الخلفاء العباسيين حافزاً للكتاب، أياً كان مذهبهم وأصلهم، على الإقامة فيها فصارت على حق عين العراق يوم كانت العراق عين العالم. وقد أفاد الجاحظ من جر بغداد هذا لتوسيع ثقافته وتكثيرها.

استدعى المأمون الجاحظ على أثر كتاب وضعه عن «الإمامة» وصدره ديوان الرسائل. وما انقضت ثلاثة أيام حتى استعفى من منصبه فأعفي. وكان سهل بن هارون يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب. وما كان ثمرة الفطري على القيود ليبقيه في الديوان أكثر مما بقي. إلا أنه بقي للخليفة مخلصاً وفياً، فأيسرت حاله بعد بؤس.

سأله أحدهم: يا أبا عثمان، كيف حالك؟ فقال الجاحظ: «سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً، حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصلات إلي، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب أفخرها، وأجلس على ألين الطبري، وأتكئ على هذا الريش، ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج، فقال له الرجل: الفرج ما أنت فيه، قال: بل أحب أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى، ويختلف إلي، فهذا هو الفرج!».

ولما توفي المأمون لازم الجاحظ محمد بن عبد الملك وزير المعتصم المعروف بابن الزيات وانحرف عن القاضي أحمد بن أبي دؤاد، للعداوة بين أحمد ومحمد،

(١) في ذلك العهد كان يتلقى الفصاحة شفاهاً عن الخطباء والشعراء الذين كانوا يترددون إلى أسواق البصرة المعروف بالمربد، وكان يجالس بعض أئمة اللغة كابن وهب والأخفش. ويقال إنه كان يكثر حيوات الوراقين ويبيت فيها أحياناً للمطالعة.

فما قص عني من نريات هرب الحاحط فليل له لدا هربت؟ فقال حمت أن  
أكون ثاني اثنين أدهما في التور<sup>(1)</sup>.

غير أن هرب الحاحط لم يحط طويلاً من شر القاصي بن أبي دؤاد، فقد حدث  
اسحق الموصلي قل<sup>(2)</sup>

«كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قل ابن الريان، فجاء الحاحط مفقداً،  
وكان من أصحاب ابن الريان، وفي ناحيته، فلما نظر إليه قل والله ما علمت  
إلا متسبباً لعمه، كهوراً للصيغة، معدداً للمساوي، وما فتى باستصلاح  
ك، ولكن الأيام لا تصحح لك إلا لفساد طوبتك، وردة دحنتك، وسوء  
اختيارك، وتعال طبعك، فقال له الحاحط: حفص عك، أيدك الله، هو الله لأب  
يكره لك الأمر عني خير من أن يكون لي علك، ولأب أسوء وتحسن، أحسن  
عك من ن أحسن فتسيء، وب يعفو عني حار قدرتك، أحسن من الانتقام  
مني، فقال له ابن أبي دؤاد قبحك الله، ما علمت إلا كثير ترويق الكلام، وقد  
جعلت بيانت أمام فسك، ثم اصطفت فيه سفاق والكفر، ما يؤيل هذه الآية:  
﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، أبأحد أليم شديد﴾ قل

تلاوتها تأويلها، أعر الله لقاصي، فقال حسوا بحداد، فقال أعر الله القاصي،  
ليفت عني أو يريدي، فقال بل ليعك عك، فحيء بالحداد، فعمره بعض أهل  
مجلس أن يعف ساق الحاحط، ويطيل أمره قليلاً، فظلمه الحاحط وقال: اعص  
عسل شهر في يوم، وعص يوم في سعة، وعص ساعة في لحظة، فإن الضرر عني  
سافي، وليس جدد ولا ساجه فصحت ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه، وهان  
ابن أبي دؤاد لمحمد بن منصور وكان حاصراً أنا أئق بظرفه ولا أئق بسديه، ثم  
قال يا علام، صر به إلى الحدم، وأعط عنه لأدى، وأحمل إليه تحت ثياب،

(1) ابن الريان قد صرع، في أيام وراثة، توراً من حديد يعذب به المصادرين فلما اعتصمه  
المتوكل مر يده حاله في التور

(2) معجم الأدباء بباقوت، جزء 6، صفحة 58

وصوبة، وحقاً، فليس ذلك، ثم أتاه فتصدر في محسبه، ثم أقبل عليه وفا  
هاب الآن حديثك يا أبا عثمان»

### عند أبي ذؤاد

وقدم أبو عثمان كتابه «اللب والتبيين» للقاضي ابن أبي ذؤاد فأعطاه هذا  
حمسه آلاف دينار وأقام يوماً على عهده. فلما مرص وحلقه في انقصه ابنه  
أبو الوليد، التحق به، الخاط حتى صرف من الخدمة، ثم أرم لصح بن حلق  
وصدوه على ود.

وذكر الخاط من بعد لستوكل، لتأديت بعض ولده فلما رآه لحيفه، استشع  
مطره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه، فما ان حرج من عنده حتى لقي محمد  
بن إبراهيم، حاكم فارس، وهو يربط الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض عليه  
الخروج معه والاحذار في حراقتة<sup>(1)</sup> بسر من رأى<sup>(2)</sup> - فركبا في الحراقة حتى  
انتهيا إلى قم القاصول<sup>(3)</sup> فصب هناك متارة وأمر العاء معهم الخاط، ما شاء  
التعم، بالعم الشحي، وكد يابى الحياة أن تمر عني غير رهو ورفاه

وهذا المين إلى العيش لرحي دفع الخاط إلى النقل باستمرار، وبدا هو دائماً  
عني سفر، وبدا هو لا يكفي بالعراق مقرأ، فتركه إلى مصر وإلى دمشق وإلى  
إطاكية، وإلى غير بندا يسرح بصره وبصيرته حيثما يحل ويدون استطاعته  
بأسلوب فكه رشيق وقد ذكر في سفره إلى إطاكية البادرة التالية.

«إني رأيت الثلث الأعلى من مدرة مسحد. إطاكية أظهر حدة من الثلثين  
السفلين، فقلت لهم، ما بال هذا الثلث الأعلى أحد وأطرى؟ فابوا لأن تسم  
ترفع من بحر هدا، فكان لا يمر بشيء، إلا أهيكه، فمر على سبعة هي انهو،

(1) مركب صغير

(2) تعرف اليوم بسمراء

(3) اسم نهر

مجادياً برأس هذه البقرة، وكتب على مفاهي عليه، فصر به نداء صر به حدث من  
جميع أكثر من هذا مقدار، فأعدوه بعد ذلك، ولذلك تختلف في المنظر»

### الشيخوخة

غير أن امرئ الذي سم لم يحاط في شبابه، على شيء من لعبوس، ما علم  
أن ماواه دوى رحمة في مرحلة العمر الأخيرة لقد أصيب أبو عثمان بالفالج  
فمازل لبس، إلا قنهم، ويرم بحظه، وفي تلك السنين العصبية كان القسم  
رفيقه لدائم يستعينه على مصابه وعلى حدود حالته وكتب عهد ذلك في كتاب  
«الحيوان» مبرراً اضطراب بعض فصوله قل

وقد صارف هذا الكذب مني حالات تمنع من بوع الإرادة فيه، أولى ذلك  
العدة شديدة، والثانية منه الأعواء، والثالثة طول لكتاب»

إبان مرضه هذا مضى أو معاد الخولي منتصب وصحبه يعودونه في مرله.  
فلما أحذوا محسنة أتى رسول المتوكل، فعلى له الخاط: «وما يصنع أمير المؤمنين  
شئ منى، ولعاب سائر سم أنبل على أبي معاد ورفقائه وقل لهم، «ما تقولون  
في رجله شق، أحدهم لو عرر بالمال ما أحسن، والشق الآخر يجره، والدياب  
فيغوث، وأكثر ما أشكوه لثمايون»<sup>(1)</sup>.

وقضى في فراشه لبس الطول وهو يعالج الداء متأسفاً فضطرب آخر الأمر  
بى لا ينقطع حتى عن القسم والكتاب، ووراه المبرز، وهو على ذلك البؤس،  
فسأله كيف حاله، فقال «كيف يكون من بصفه مضوح وحرّ بالمشير لما  
شعر به، وبصفه الآخر منقرس لو طار الدياب بقربه لآمه، وأشد من ذلك ست  
وتسعون سنة أنا فيها»<sup>(2)</sup> ثم أشف:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

(1) أمالي القاضي، الجزء الأول، صفحة 5

(2) معجم الأديب لياقوت، الجزء 6، صفحة 79

لقد كذبتك بمسك ليس ثوب      دريس كالحديد من الثياب  
 وكان يطوي نصفه الأيمن بالصدل والكافور لشدة حرارته ، يسم كان النصف  
 الأيسر شديد البرد      لقد اصطلحت الأصداد على حسده ، عني غير رحمة ،  
 فكان إن أكل بارداً أحد برحه ، وإن أكل حاراً أحد برأسه ، وما زال به الداء  
 عيماً لا يهاود حتى قصى عليه العظماء

\* \* \*

بين مدّ مرهق وحرر مشرق ، تمرّت حياة الحاحط بطابع خاص      كان دأبه أن  
 يوطد مقدمه في عاصمة لإسلام ، بغداد ، بفصل مواحه وبفصل لاسفلال الذي  
 يوفره المان أو العصمة سي يؤمها عطف الحاكمين سعداً      كان أقصى منه أن  
 يحوط إقامته في حاصرة الرشيد بالأمس والرفاء الصروريين له ليدافع عن مسدته  
 المطلقية ويشره وينسى له العيش الرعد لدي أراد  
 أحل كلمته كثيراً حماية البلاط وما تقتضيه من محادة وتمسّ ، لكنها أباته مؤثّر  
 حمة      حسبها أنها أتاحته له الحرية الكافية يعين ما يفكر به ، بل حسبها أنها  
 ومنعت أمامه آفاق الاحتمار والملاحظة ، فسعدته عني أن يكون أصدق وأدق  
 شاهد لعصره .

## آثار الجاحظ

قلما كتب أديب مقدار ما كتبه الجاحظ فهو مبدع بدأً إلى آخره ولا يبحث إلا بحال فيه ولقد كان له من الثقافة الموسوعية ما جعله يكتب في كل فروع العلم والأدب والسياسة والدين والفلسفة واللاهوت المعروفة في زمانه، حتى رغم ابن خوري أن كتبه بلغت 360 كتاباً<sup>(1)</sup> سأل فيها مواضيع شتى عن غير واحد في الجوهر أو تيسيس في المطلق. فهي كتاب «الحيوان» مثلاً، وهو مدني بحث عملي بحث، تحد معظم آراء الجاحظ في مذاهب المعتزلة، كما تحد طائفة من نقدته لاحتماكة فيه هو يعالج أمراً عمياً خطيراً تراه ينتهز فوراً إلى نادره مصحكة، أو إلى ملاحظه لا شأن بها لبنة بأسو صوغ الأصيل وأحاله كان يلحاً إلى هذه الطريقة لعريه رعة منه بتبديد من عن القراء وتشويقهم إلى متابعة فصوله. وقد قال دفاعاً عن نظريته هذه:

«إن كنت قد أمسك بالحد، وبالاكتحاجات بصحيحة والمروحة، لتكثر الخواطر، وشهد العقول، فإن سسشطك بعض البطولات، وبذكر العلل الطريقة. لك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء، تبين حجة طريقة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في صحتك مه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الحديث»

أما أهم الآثار التي تركها صاحباً من كتب ورسائل وأبحاث فهي:

١ - كتاب الحوار<sup>(2)</sup> (سعة أحرار)، وهو بحث صحم يتناول فيه المؤلف،

(1) يقول المسعودي فيها 135 ويؤكد ياقوت فيها تجاوزت 180

(2) صدرت منه طبعة حديثة في القاهرة دفعها عبد السلام هارون

وهو يصف صنائع الحيوانات، شؤوناً لا علاقة لها أبداً بعنوان الكتاب إنه موسوعة متنوعة صمّمت بحوثاً هي «التعاليم الدينية، من ليهودية إلى مصرية، إلى الررادشية، إلى النصرانية، إلى الإسلامية، إلى الإلحادية من دهرية ووثنية، مما هي هذه الديانات والوثنيات من شيع وبرعات ومذاهب، كما تصمت حواطر شخصية على هامش الخية أو نوادر وفكاهات أما العاية الأولى من وضع هذا الكتاب فلعلها على الصعيد الديني تمجيد للحال من خلال عجائب الكون وامتناح للإسلام في قوة شرّعه، بقدر ما هي، على الصعيد العلمي، نظرة شاملة في علم الحيوان وعروعه

أما المراجع لتي استند إليها المخطط فمن أهمها مبحث أرسطو وديموقريطوس وجالينوس وأبي عبد الله في الحقن العلمي. ويصغر كتاب «الحيوان» هو آخر ما صنف يدلل أنه يذكر فيه سائر كتبه بما فيها «البحلاء».

### كتاب البحلاء<sup>(1)</sup>

درس أربعة نقدية فكهة جمع فيها أبو عثمان أحوال البحلاء والمخمين في عصره من أهل البصرة وحراسان بوع حاصر وصور ما عمادح حية باطفة من أولئك الذين استهواهم الدرهم حتى العماية، فصاروا أصبحوا كالهاس ومدار تدرهم.

أما عتيه من هذا الكتاب الطريف، اندي لم يفقد طراوته على الزمان، فهي على ما يبدو سرد نوادر البحلاء واحتجاج الأشقاء، وتفسير قصدهم من تسمية لبجل إصلاح والشخ اقتصاد، وبيان رواياتهم من جعل لحد سره ولاثره جهلاً فكأنسي بالمؤلف شاء أن يظهر، بشكل بهكمي بارع، حفاة البحلاء، ليعظم سحاء العرب عن طريق مقارنة القيصيين.

(1) ترجمه بن الفرسه شارل بلا و صدر به مؤخر صبعان متفحان في العربية (احده في مصر دفعها طه الخاجري) والثانية في بيروت (دفعها كرم البستاني)



من خلال صوز البحلاء والأشقاء يعني الحاحظ في هذا الكتاب، أكثر مه في أي كتاب آخر، أصواء كشافة على بيئة عصره في شتى مواجيه. فكتاب «البحلاء»، من هذا القليل، مرجع وثيق لدراسة المجتمع العباسي إبان ازدهار بغداد والبصرة وحراسد وخصوصاً من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل ولا تقل قيمة الكتاب الأدبية عن قيمته التاريخية، فهو على وجه الإجمال<sup>1</sup> من أرشق آثار الحاحظ أسلوباً وأكثرها متعة.

## البيان والتبيين

هو من أهم كتب الحاحظ، قال فيه ابن خلدون: «وسمع من شيوخنا في محالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين. وهي أدب لكاتب لاس قسية، وكتاب الكمس مبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب ليوادر لأبي عبي الفاي وما سوى هذه الأربعة تنبع لها، وفروع عنها»<sup>2</sup> في هذا الكتاب يحلظ الحاحظ، كعادته، بين علوم البلاغة والأدب واللغة والباريح والمطلق وهو على كل حال مرجع ديب وثيق وكست العابة من وصعه الرد على الشعوية بتبيان تعوق العرب في البلاغة.

## رسالة التربع والتدوير

هي رسالة وصعها الحاحظ في هحاء أحمد بن عبد الوهاب وأخرج فيها من سمّه بقدر كبير وما قانه في قدح بن عبد الوهاب أنه يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معنيها، ويحمد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا الالتحال لاسم الأدب.

في هذه الرسالة المفريده التي يتأدر بها أبو عثمان على مهجوه يطرح عليه قصد تعجيره ومعنياته منه مسألة تدول معظم المعصلات العلمية التي شعت

( ) فيه من هذا بعض لأبيهم وبعض الكلام العريب

(2) المقدمة، صفحة 805

شتمع عصره من تاريخ ، إلى فلسفة ، إلى كيمياء ، إلى لاهوت ، إلى حيوان ، إلى نبات . .

والمعصلات التي يذكرها الخاحط في أسئلته المخرجة لا يحلها طبعاً في رسالة الربيع والتدوير القصيرة بل يحيل مآطره في كل مسألة إلى كذب معين من كتبه . إنها تظهر مدى معارف الخاحط الموسوعية ، بقدر ما تظهر لدعته التهكمية الجارحة .

### سائر الرسائل

كتب أبو عثمان رسائل كثيرة ، إضافة إلى هذه الكتب ، في مواضيع شتى : منها في الفلسفة والدين ، كرسائله في فضيلة المعتزلة أو الردة على الصاري ، ومنها في السياسة ، كرسائله في مناقب الترك ، أو فخر السودان على البصير ، أو العثمانية ، أو رسالة بي بي أمية ، ومنها اجتماعية كالغيان والعشق والنساء ، ومنها أخلاقية ، كالحاسد والمحسود ، ودم الكتاب ومنها علمية أو اقتصادية كرسائله في الخراج ورسائله في الكيمياء الخ . . .

وهناك رسائل كثيرة نسبت إلى الخاحط ، لكن نسبتها تثير بعض الشك ، ككتاب الساح مثلاً . وكان من الشائع في ذلك الزمان أن يسب كتاب ما إلى أديب معروف قصد ترويجه ، وقد لاحظ الخاحط نفسه إلى هذه الطريقة في أول عهده الكتابي .

## أخلاق الجاحظ ونواياه

قل أبو عثمان ما حجبني أحد لا امرأتان، رأيت إحداهما في العسكر،  
وكانت صويبة البغامة، وكسب على طعام، فاردت أن أمارحها.

ففت لها: انري كلي معنا.

فقلت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا<sup>١١</sup>

وأنت الأخرى فإني أنسي وأل على باب داري فقال لي إليك حاجة وأريد  
أن تمشي معي. ففهمت معنا إن أأ أنت بي إلى صائغ يهودي وقلت له: مل  
هدا<sup>١٢</sup> وانصرف. فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إلي بعصر وأمرني  
أن أنقش لها عليه صورة شيطان ففهم لها «ما ستي ما رأيت الشيطان»<sup>١٣</sup>  
فأنت بك وقالت ما سمعت<sup>١٤</sup>

ش دلت هذه المادرة على شيء وإنما تدل على ميل فطري إلى التهمك  
والسخرية، فاحاحه أحب التهمك للتهمك حتى ولو على نفسه. كان المرح من  
صميم طبعه، والتكئة على أسنة لسانه.

قد يكون مصدر هذه التكئة المأمة، كما يبدو، عقدة نفسية ولدتها الغمة  
على قدر هريئ بصاحبها فحعبه دميماً هريلاً، وصيغ السب، بقدر ما عررتها ثوبة  
على مجتمع ما قدّر لعنم قدره، فرفع دوي العرور وأعصى عن حملة الثقافة، وما  
كان المرح، لا مطهر كبرياء لدى أبي عثمان، وقد أبى أن يروح تحت عقده بقصه  
موكداً قول المثل: كل ذي عاهة جبار.

إلا أن الحاح، إن حرمة الطسعة شكلاً لانقاً، فقد حته عفلاً ميراً وحسناً

مرهفًا، فكأن سريع الافتناس حدّ السهل، دقيق الملاحظة، يشبه لأهل شيء  
فيصوره تصويراً بارزاً وكان إلى ذلك دواءً فما عزم على أمر لا اتاه  
أما العوامل التي صرفته إلى الكتابة فكثيره ومتنوعه : منها، طبعاً، سرعة غزيرته  
في مظاهر العقل، ومنها ثمرد على أوصاف اجتماعية رآها مخجلة، ومنها ثورة  
على جهل مقيم بسط الحرفه والسحافة على المنطق والحقيقة، ومنها بروع حاصح  
إلى اربح «مادي» ليتوفر له العيش المرفه وبسط الحاد وانقذح باعبر عن أيسر  
سبيل.

## ما هو المحتمم الذي وصفه الجاحظ

عاش الجاحظ ، كما رأينا ، في النصف الأخير من القرن انهجري الثاني ، وفي النصف الأول من القرن الثالث ، أي في ذروة الخلافة العباسية وقد امتد سلطان أصحابها حتى إلى بلاد الهند ، فجعلوا من بغداد ، القرية الصغيرة الخاملة على ضفاف دجلة ، عاصمته ثم هو بقصور شامخة قامب على أنقاض صروح كسرى

### نفوذ الأعاجم

عمّ البرق في مدينة الرشيد تبيحة لبجوحة لاقتصادية ، وأتبع الخفاء الطريقة الفرسية في عيش والحكم والهندسة ، فبدأ موافقهم نعتاً على أنحر ما كانت نعت عنه موافد سيادة رسر ، وإذا محاسنهم تُقرش وتُرتب على طرر محاسنهم ، وإذا دواؤهم بعض باورراء ، والمستشارين والكُتب والخياب على أحسن ما عرفه كسرى أموشروان

إن خدر من ردة فعل للأمريين وأنصارهم دفع بني العباس إلى الاعتماد على انفرس أولاً ، ثم على الأتراك في شؤوهم الخطيرة ، فكان البرامكة أهم ورر انهم ، وكان الحراسايون والترك بواة حيسهم ، فقويت شوكة الأعاجم وتعبت الشعوبية هي كل حقن

### الحرية الفكرية

كان لهد الاحتلاط المستمر بين الشعوب أثره الخامس في خلق جو من الحرية الفكرية رحب ، فعدن كان هارون الرشيد ، على سعة صدره ، قد حرّم الخدال

في أمور لدين، وهدد بمعاقبة أهل علم الكلام. ح، المأمون فأطلق القول<sup>(1)</sup> وقرَّب رجل العلم والأدب والعلم كد هو نفسه يحاح المقهى في مجلسه ويسلم بأرائهم إذا افتتح بها وقد أشار أبو عثمان إلى هذه النعمة لإسابة عندما قال يستحث قرائح الكتاب من معاصريه<sup>2</sup>

«ويعني أن يكون سبباً لمن بعده كسبيل من كان قبله فيما، على أن قد وحدث من العبرة أكثر من وحدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر من وحدنا، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده؟ وما يمنع الناصر لبحر من القيام عما يدرمه؟ وقد أمكر لقل، وصبح الدهر، وحوى بحم التقية، وهت ربح العنماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم».

## الثقافة

مد عهد المنصور بدئ قل بعض الآثار الفكرية اليونانية إلى العربية وبعث حركة الترجمة أوحها في عصر المأمون وقد أشأ هذه الخليفة، صديق الفكر والمفكرين، بست الحكمة في بغداد، وجعل له مكانه ومرصد<sup>3</sup>. إلا أن قل بعض وجوه التراث اليوناني إلى لعنة لم يجر، لا راساً، ولا بدقة، بل عن طريق لسيانية<sup>(3)</sup> ويتصرف ومن هذا كان تشويش في المعنى، بل الشافعي حدث بين الأصل والمنقول<sup>(4)</sup>

وقد أثرت الفلسفة اليونانية رعة الدس في استقصاء الخليفة والاسفدسة في العلوم، فوضعت الكتب في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب، وأحدثت تنقّص الخرافات والأساطير الكثيرة الشائعة والمسيطر على لأدهان.

1 لا أن إصلاحه القول لم يبعه من وضع «نسخة»، وهي قطع غناب عرته الإسلام وكان المأمون يحرصه على مخالفي رأيه في لأعزال

(2) كتاب الخيون، صبعة 43

(3) كان أشهر ملتر حمير من كل بحيشوع وآل حمير وآل بويحت

(4) أهم لمدارس التي يقب إلى السريانية كدت في حديد بود والره وحران

لم تقتصر الرحمة على لراث انبوي وحده، بل شملت الثقافات الهندية  
والفارسية والرومانية وسائر الثقافات المعروفة في ذلك العهد، فانسح أمام  
الكاتب العربي محال رحب لتشفق قل الساح، وكان من قل يصرف حل اهتمامه  
إلى النحو والبعة والبيان والإرشاد

كان من لطيفي أن يؤثر الفلسفة ليوانية، القائمة على لمطق والتحليل، في  
توجيه لعهداء نحو إعادة النظر في الشؤون الدينية على ضوء العقل السلم

### المعتزلة

من ثمار تحكم العقل في قصاي الدين كانت المعتزلة<sup>١</sup>، وهي طائفة تقول بقدام  
الله، وتسمي الصعقات القديمة أصلاً، ويحدد الله بأنه علم بداته، قادر بذاته، حي  
بداته لا يعلم وقدرة وحياة<sup>٢</sup>، واتفق أصحابها على أن كلام الله يحدث محروق  
في محل، وهو حرف وصوت وعلى أن الإنسان قادر، حائق لأفعاله ومسؤول  
عنها

والمعتزلة طبقات ولكل منها، في نظر الخاطئ، شأن خطير وقد قل عنهم.  
«لولا مك، متكلمير لهكت العوام من جميع الأمم، ولولا مك، المعتزلة لهكت  
العوام من جميع المل»

غير أن أبا عثمان أن اتفق مع سائر طبقات المعتزلة، في شؤون كثيرة، فقد  
امرد بعدد أمور. منها قوله أن المعارف كلها ضرورة طناع وليس لبعاد كسب  
سوى لإرادته ومنها إنكاره كواب الإرادة حسباً من الأعراض<sup>٣</sup>.

وقد اشترت المعتزلة تشار كاسحاً أيام خلافة المأمون حتى غدت اذهب  
لرسمي واستمرت كذلك إلى أن جاء لتوكل فصر بها صربة عسة

(١) ظهرت في أواس القرن الثاني الهجري حول حقه الحسن البصري على يد ر صل بن عطية

(٢) المل والمل لسهر ساي، صفحة ٩٩

(٣) المل والمل، صفحة 94

كان لأهل الكتب، ولا سيما النصارى، حرمة خاصة عند المسلمين. وأحسب أن هذا مرده لمثل الذي قم للمسيحيين قبل الإسلام، ولحسن الحوار فيما بينهم. وفي هذا قال أبو عثمان: «لما جاء الإسلام ومثلك لعرب رجال عسائي ولحمي وهما نصرايان، وقد كانت العرب تدب لهما وتؤدي لإثارة إليهما<sup>(1)</sup>. وكان النصارى لعدديارهم من معث السي وَاللَّيْلِ ومهاجره، لا يتكلمون طعماً، ولا يثيرون كيداً، ولا يجمعون على حرب، فكان هذا أول أسباب ما علقت القلوب على اليهود وليتها على النصارى<sup>(2)</sup>»

وبعض هذه الحرمة تمكّن النصارى من تولي أصعب الخطيرة في لدولة العباسية في عهد المأمون لكر نفوذهم مع من الاتساع حدّاً صبح معه يتهدد الإسلام، فكانت من الموكل تنافسة عيفة هيا المحط لها الطريق برسائله الشهيرة «الرد على النصارى»

وفي حو التساهل لديني داك استعاضت الرندقة<sup>(3)</sup> وتعددت الفرق إلا أن الرندقة ما نحو من العقاب فشرّد بعضهم، وقُتل بعضهم، وناب الآحروب وقد اتهم المحاط أهل الكتاب بإثارة هذه الرندقة في صفوف المسلمين

## البيئة الاجتماعية

أم البيئة الاجتماعية في ذلك لعصر فكان أرب ما يمرر احتلاط الشعوب وتعدد العاصر وقد أدّى الاستقرار السياسي إلى الازدهار الاقتصادي الذي ونّد بدوره حب لسح واجشع، فشاع اللهو، على أنواعه، من معاقرة الخمر

(1) على هامش الكامل سمرد، ج 2، صفحة 162

(2) على هامش نكاسل ج 2، صفحة 70

(3) كانت كلمة رنديق على في البدء سمسم كل من اعتق انداهب الدراسية، ثم أصبحت على كن مفكر حر حطر على سلامة الإسلام



إلى الرقص ولعناء، إلى اللعب ولهو، إلى التعم بالصور والجمال، إلى محالطة  
الجواري الحسناء ونشأ عن كل هذا فتور في ممارسة موجبات الدين وإحلال  
في الأخلاق واستهتار في الشؤون العامة، إنها النتيجة الحتمية للسرف في الأمم وقد  
وصفت إليها كل الدول في دروة مجدها.

ومهما يكن من أمر فقد كان العهد العباسي، ولا سيما عصر المأمون، العهد  
الذهبي الأكبر لحضارة عربية لقد صهرت حقاً هذه الحضارة في بوتقتها  
حُلَاصة الحضارات بحريقة ووسمتها بطابع مميز

## المجتمع العباسي كما رآه الحافظ

نظر الحافظ إلى المجتمع نظرة ثائرة على وضعه الإنساني، ومعتزلي مُعصم «بأصول» مذهبه، ومدافع حارم عن أسباده الخلفاء، وأديب توحى التوجيه والقد بقدر ما توحى الوصف المجرد والترويح عن النفس.

ما قصد فقط أن يصلح مجتمع عصره ذهاباً من المؤسسات والقوانين، ولا أن يدرس الظواهر الاجتماعية ليستخرج منها مذهباً اجتماعياً معيناً، بل كقائه شديد الدراسة سليم الدوق، كان حل همة أن يسرح نظره الفاحصة في كل وسط وكن مضمار.

لقد شاء أن يلتقي حاجة فنية في نفسه، فوصف معاصريه كما راهاهم أو كما توصحوا له، بقدر ما شاء أن بهراً بعبوبهم رعة مد في إثارة الصحك راح أن يرشد الناس، بشيء من الخش، إلى ما يؤدي إليه انحرافهم من الاحتقار، وأن يروي حقه المكبوت، ذلك لحقد الذي يكتنه ابن الشعب الكادح لمستثمره، وأن يحدم فكرة دبية أو سياسية عريضة عليه قد تحر عليه معماً وحاماً، إلا أن كان هذا لا يعني أن تكون له نظرات سديدة نثرها في مجموعة آثاره حول إصلاح المجتمع وعلم الاجتماع بوجه عام.

إن نظرنا، من هذه الزاوية، إلى نقد الحافظ الاجتماعي، بدت لنا وحوه مميزة عدة، لكنها تكامل تكاملاً يجعل تفسيرها مصطعباً، ومع هذا، سنحاول أن ندرس هذه الوحوه في حقول ثلاثة مفردة:

- 1- الحقل الأخلاقي.
- 2- الحقل الديني السياسي.
- 3- الحقل الاجتماعي المجرد.

## الحقل الأخلاقي

هي عمرة السحوحة المالية التي عم بها العراق في العصر العباسي انتشر انهو واشتدّت الرعبة الى كسب المال، الوصيلة التي تؤمن لهذا اللهو أسبابه، ونقسم الناس فئتين فئة المخطوطين، وهم أهل انبلاط والحاشية والأمرء والورراء والأتباع، وكانوا في يد ح مقيم لطلما تحاور المعقول<sup>(1)</sup>، وفئة اخرومين الذين رعو في بؤسهم يشوب من حور مستثمريهم ولا يحرقون حتى عدى التدمير.

### المستثمرون

في مجتمع لندرمهم شأنه في ورر انقيص، كان من لطيعي أب يودي اليهاقت عى المان إلى أقبح لوسائل. من مخانة، إلى حياة، إلى تزلف، إلى كذب، إلى عدر، إلى وشاية أو بحمة، وإلى كل صغاره تحط بمستوى الإنسان

في هذا الصدد ذكر الخاطب أن حكّم المناطق كانوا يعيدون من سلباتهم يحرصوا انهادب عى الرعة بانتظم، وإن الموظفين كانوا يسيئون استعمال وطيفتهم بدفع الخشع إلى المل، وإن الأوصياء ما كانوا ليرتدعوا عن نهب ثروة القصر، بينما المفروض أن يحرصوا عيها من نهب الغير، فصحّ فيهم قول المثل السدر، «حاميها حراميها». حتى انقصه كانوا يسحرون العدالة لأهوائهم ومطامعهم وقل الخاطب في هذا عى لسان والد يوصي، عبد موته، ابيه بالحرص عى ميراثه<sup>(2)</sup>

(1) كما عبد البرمكة مثلاً

(2) البحلاء، صفحة 58-59

«إِنَّ هَذَا لِمَالٌ لَمْ أَجْمَعْهُ مِنَ الْقَصَصِ وَالْكُدِيَّةِ، وَمِنْ حَتَالِ النَّهَارِ وَمَكَابِدَةِ اللَّيْلِ، وَلَا يَجْمَعُ مِثْلَهُ أَبَدًا إِلَّا مِنْ مَعَادَةِ رُكُوبِ الْبَحْرِ

«إِنِّي قَدْ لَا بَسْتُ السَّلَاطِينَ وَالْمَسَاكِينَ، وَخَدَمْتُ الْخُلَفَاءَ وَالْمُكْدَنِيَّ، وَحَالَطْتُ السُّبُكَ وَالْمَتَّكَ، وَعَمَرْتُ السُّحُوبَ كَمَا عَمَرْتُ مَحَالِسَ الدُّكْرِ، وَحَسْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ، وَصَدَدْتُ دَهْرًا كَثِيرًا لِأَعْيَابِ فَلُولَا أَيُّ دَحْتٍ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَحَرَيْتُ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، وَعَرَفْتُ لِسْرَاءَ وَالصَّرَاءَ، حَتَّى مَثَّتُ لِي التَّحَارِبَ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، وَقَرَّبْتَنِي مِنْ عَوَامِصِ التَّدْيِيرِ، لَمَّا أَمَكَّنِي جَمْعُ مَا أُحْنَفُهُ لَكَ، وَلَا حَفَظَ مَا حَسَنَتُهُ عَلَيْكَ وَلَمْ أَحْمِمْ نَفْسِي عَنِّي جَمْعَهُ، كَمَا حَمَدْتَهَا عَنِّي حَفَظُهُ، لِأَنَّ بَعْضَ هَذَا لِمَالٌ لَمْ أَنَّهُ بِالْحَرَمِ وَبِكَيْسٍ قَدْ حَفَظَهُ عَيْنُكَ مِنْ فِتْنَةِ الْبَيَاءِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسَاءِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّهَارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الرِّبَا، وَمِنْ أَيْدِي الرُّكُلَاءِ فَوَيْلٌ لِهِمْ الدَّاءُ الْعِيَاءُ

«وَسَيِّئٌ أَوْصِيكَ بِحَفَظِهِ لِمَصْلَحَتِي لَكَ، وَلَكِنْ بَعْضُ بَعْضِي الْفَاضِي بِإِذْنِ اللَّهِ، جَلَّ ذِكْرُهُ، لَمْ يَسْطِ أَنْقَضَةُ عَلَى أَمْوَالِ الْأَوْلَادِ إِلَّا عَقُوبَةُ الْأَوْلَادِ، لِأَنَّ أَبَاهُ إِنْ كَانَ عَيْتًا قَادِرًا أَحَبَّ أَنْ يَرِيَهُ عَدُوٌّ وَقَدَرَتُهُ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا عَاجِزًا أَحَبَّ أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْ مَدَارِهِ فَلَا هُمْ شُكْرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ وَكَفَهُمْ وَوَفَّهِمْ وَعَرَسَهُمْ، وَلَا هُمْ صَبَرُوا عَلَى مَنْ أَوْجَبَ لَهُ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ وَاحْتَقَلَّ بِرُصْفِ عَاحِلِهِ بِالْحُلَاوَةِ، كَمَا لَا يُوصَفُ عَاحِلُ الْبَاطِلِ بِالْمَرَارَةِ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَالْفَاضِي لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فَاللَّهُ لَكَ فَإِنْ سَلَكْتَ سَبِيلِي صَارَ مَالُ عَيْرِكَ وَدِيعةُ عَيْدِكَ، وَصَارَتِ الْحَافِظَةُ عَيْنِي عَيْرَكَ. وَإِنْ خَالَفْتَ سَبِيلِي صَارَ مَالُكَ وَدِيعةُ عَيْدِكَ، وَصَارَ عَيْرَكَ الْحَافِظَةُ عَيْنُكَ وَإِنَّكَ يَوْمَ نَظْمِمْ أَوْ نَصْمِمْ مَالُكَ وَيَحْفَظُهُ عَيْرُكَ، لِحَشِّعِ لَطْمِمْ بِمَحْدُولِ الْأَمْرِ حَتَّى الْآبَاءِ فِي حَسَنِ الْأَمْوَالِ عَيْنِي أَوْلَادَهُمْ بِالْوُفُوفِ، فَاحْنَالَتْ الْقِصَاصَةُ عَيْنِي أَوْلَادَهُمْ بِالْإِسْتِغَاثِ مَا أَسْرَعَهُمْ إِلَى إِصْلَاقِ الْحَجَرِ، وَبَلَى إِيَّاسَ الرُّشْدِ، إِذَا أَرَادُوا الشَّرَّ مِنْهُمْ وَبَطَّأَهُمْ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ أَمْوَالُهُمْ حَائِرَةً لَصَانِعِهِمْ».

كان من الديهي أن خير هدا الخشع إلى المال في الصقة الميسورة بروءاً إليه في سائر انطباق ، ولكن على نطاق أصيق ، فمشتات طائفة «شعية» من المستثمرين مؤلفة من المتسولين واللصوص والمشعوذين تعيد من سداحة بعض الناس ولا نحجم حتى عن الاستعانة بمعدات واستاحتها لأجل تحصيل الدرهم . وقد وصف الخاطب بعض عا دح منهم وبين طرق حدا عهم متها إلى ألعهم وشرهم هذا المحطراي هو من يأتي في ري ناسك ويدعي أن بائك<sup>١</sup> قد قطع لسانه ثم يصح فاه كما يصنع من يتشاء ، فلا ترى له لساناً لثة ولا تدل هذا المحطراي أن يكون معه واحد يعتز عه ، أو روح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصه وجهه الخيلة البارعة يستثير شفقة البسطاء فيسرق مالهم .

أما الكاعدي فهو من يصنع لحور وأما القرسي فهو من يعصب ساقه ودرأه عصباً شديداً ، ويبت على ذلك ليلة ، فإذا تورم واحتق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين (سات أحمر) وقطر عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عيه حرقة أو كشف بعصه فلا يشك من راء أن به الأكلة أو ما يشبه الأكلة ، فيرق قسه عيه ويعطيه بعض الدراهم

وأما النعواء ، فهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء . وربما طرب ، إن كان له صوت حسن . وأما الاسطيل فهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه محسب العبيس ، وإن شاء أراك أن بهما ماء ، وإن شاء أراك أنه لا يُبصر . وأما المرید فهو الذي بدور ومعه الدريهمات ويقول : هذه دراهم قد جُمعت لي في ثمر قطيعة ، فريدوي فيها رحكمم الله . وري حمل صبياً على أنه لقط . وربما صب في الكه<sup>(٢)</sup>

ويستفبر الخاطب في وصف حيل أولئك المكذبين ويرع في تصوير طاهرهم

(١) رعم إحدى الفرق الإسلامية

(٢) البلاء ، صفحة 65

وتحليل مقاصدهم . ولا ع و فهو من طقة لا تريد عن طفتهم من حيث انيسر  
امادي والحسب والسب . وقد حذر حصوصاً من شرّ اشعراء والخطباء الدخّالين  
إدقار :

«ما ظنك بالشعراء والخطباء اندي بما تعلّموا المنطق لصناعة الكسب ؟ وهو لا ،  
قوم بؤدهم أن ارباب الأموال قد حازوا حذّ السلامة إلى العفة ، حتى لا يكون  
للأموال حارس ، ولا دورها سبعاً في حذرهم ، ولا تنظر إلى برّة أحدهم ، فإن  
المسكين أقبح منه ، ولا تنظر إلى موكله ، فإن السائل أعفّ منه ، واعلم أنه في مسك  
مسكين ، وإن كان في ثياب حديد ، وروحه روح برّ ، وإن كان في حرم منك ،  
وكلهم ، وإن احلقت روحه مسئلتهم ، واحتجب أقدار مطانهم ، فهو مسكين .  
إلا إن واحداً يطلب العنق ، وآخر يطلب الحرق ، وآخر يضرب الدّوسق ، وآخر  
يطلب الألوف . فحبه هداً في جهة هداً ، وضعفه هداً هي طعمة هداً ، وبما  
يحتشرون في أقدار ما طسور ، عني قدر الخدق والسب فاحذر رقاهم ، وما  
نصوا لك من الشرك ، واحرس بعصك وما دستوا بها من الدّوهي ، وعمل على  
أن سحرهم يسترق لدهن ، ويحتطف النصر . قال رسول الله ﷺ : «إيا من اليباب  
لسحراً»

لقد عرّ عليه حقاً ان يمتنّهم رملاء له في الادب رسالتهم وبهبطوا فيها إلى  
مستوى الكنية والص

## البحلاء

بد أن براعة الخدع في وصف المسؤولين ليست بشيء يذكر إذ قيست ببر عته  
في وصف لبحلاء . فإن له في تصوير عيد الدرهم هؤلاء ، وفي فصيح أبايهم  
شعراً خاصاً فعدا الحق السحصي اندي بضميره انعدم عادة لسفوس لهدرة  
المولعة بالكسب ، على حرمانه أحتت ثورته على البجل والبحلاء عوامل  
سياسية حصيره فهي حمته عني الشعوبية مثلاً كان لا بدّ له أن يندح حود  
العرب ويظهر بجل الموالي . ههنا ثمة إهانة ، في نظر العربي ، أقبح من البجل

وهو أسمى عنده من الكرم وحسن الصيافة ! أو لم يذكر عن النبي ﷺ أنه لم يضع درهماً عسى درهم ولا لبة على لبة، وملك حريره العرب فقبض الصدقات، وخبيت له الأموال ثم توفي وعليه دين ودرعه مرهونه وكان إلى هذا إذا سئل أعطى وإذا وعد أبجز<sup>(1)</sup>

وفي بلد البحلاء لم يكتف الخاطب بصرة عذرة، بل كرس كتاباً كاملاً من أشهر كتبه وأوفرها اسحماً، فجمع أخبارهم، وأظهر حركاتهم، وحسن تعليلاتهم، وكشف نسيانهم فكأنها أمامنا كتاب مفتوح.

وها هي بعض أمثلة، على طريفته الساحرة المرححة في تصوير البحلاء والمحلين: «بمول المروري»<sup>(2)</sup> للرائر إذا أنه، ومحلين إذا صال حوسه - بعديت اليوم؟ فإن قال نعم، قل - بولا أنك تعديت بعديت بعداء طيب، وإن قال لا، قار - لو كنت تعديت لسقنت حمسة أقذاح، فلا يصير في يده عسى لوجهين قليل ولا كثير».

«وكت في مرل ابن أبي كريمة، وأصنه من مرو، فإني أتوضاً من كور حرف، فقال سبحانه الله! تتوضاً بالعدب، والبئر لك معرصة؟ قلت ليس بعدب، إنما هو من ماء الشر. قل فتفسد عينا كورنا بالمسوحة فلم أدر كيف أتخلص منه»<sup>(3)</sup>

«وقال نامة»<sup>(4)</sup>. لم أر أندبك في بلده قط لا وهو لافظ، بأحد الحية بمقاره، ثم يقطها قسّم له حاحه، إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مافرها من الحب قل فعلمت أن يحلهم شيء في طبع البلاد وفي حواهر الماء، فمن ثم عمّ جميع حيوانهم.

(1) البحلاء، صفحة 187

(2) نسبة إلى مرو وهي مدينة كبيرة من حرماتك (فارس)

(3) البحلاء، صفحة 23

(4) نامة بن الشرس، أحد رعماء المعتزلة

«حدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد، فها، كت عبد شبح من أهل مرو، وصبي به صغير يلعب بين يديه، فقلت له، إنا عابثاً وإنا ممتحناً أطمعني من حركم. قال لا تريد، هو مر. فقلت فاسقني من مائكم قال: لا تريد، هو مالح. قلت: هات بي من كذا وكذا قال: لا تريد، هو كذا وكذا إلى أن عدت أصافاً كثيرة، كل ذلك بمعينه ويُعْصه إليّ. فصحك أبوه وقال ما دسا؟ هذا من علمه ما تسمع؟ يعني ن الحل طع فيهم وفي أعرفهم وطبتهم»<sup>(1)</sup>

ويحلوا لنجاحط أن يوقف عبد رأيه هذا وهو أن الحل طع في بعضهم لا وليد حاجة وإلا لكان اقتصر على الفقراء ولد ساع، كما شاع في رمة، بين المؤسرين، فيقول «فأنت قد نكدت بحيلاً وممكنة أوسع وحرجه أدر وعدوه أسكر، ونكد أحرر منه حواداً. وبك كانت ممكنة أصبق وحرجه أقل وعدوه أشد حركة»<sup>(2)</sup>

ولا يقف صاحباً عند سرد بواذر الحلأ، وتعداد طرقهم ووضع تصعهم، وكشف مواطنهم، بل يريد عنهم صورة حسية، نكاد نلمس فيها حدهم، وقد ابتلي بصيوف حاول عبثاً أن يتمص منهم، يسعى محمواً لتهوين مصابه بتحفيف وجبة مأكلهم إلى أقصى ما يستطيع، «فردوا وصعوا الطعام»، أقبل على أشدهم حياء، أو غنى أشدهم كلاً، وسأله عن حديث حسن أو عن خبر طويل، ولا يسأله إلا عن حديث يحتاج فيه إلى الإشارة باليد أو الرأس، كل ذلك ليشعله فإدهم أكلوا صدر أظهر الصور والساعن والسقر كالشعب الممتني وهو في ذلك غير رافع يده، ولا قاطع أكله. إنما هو السّف بعد السّف، وتعليق اليد في حل ذلك فلا بد من أن ينقبض بعضهم ويرفع يده، ويتم شمل ذلك جماعهم فإدهم غم أنه قد أحررهم راحات لهم، حتى يقنعهم من مواضعهم من حول الخوان، ويعيدهم إلى مواضعهم من مجالسهم، ابتداء الأكل، فأكل أكل الخانع

(1) البحلاء، صفحة 24

(2) البحلاء، صفحة 89.



المقرور وقال: «إنما الأكل تارات والشرب تارات»<sup>(1)</sup>.

إنه الولد الأعمى بالدرهم يسيطر على صاحبه سيطره مستبده تجعله يستوحيه في أعماله وأفكاره وحتى في أحلامه ومن خلال بحلاء مجتمع في البصرة أو في حراسان، فقد الجاحظ إلى نفسه بحيل كل عصر ومصر ورسم عنه صورة تتحدى في طرافها الزمان.

## القيان

من مظاهر اليسر المادي والاستقرار السياسي في العراق كان الانصراف إلى اللذات عن كل طريق، عشاع السري وكثرت حيلقات العناء ومحال الشراب، وازدهرت بحاره الرقيق وقد لعبت القرب دوراً خطيراً في ذلك المحيط. والقيد، هي الأصل، حوار يأتى من كل بلد حتى ملأ أسواق بغداد والبصرة، وأسهم في نشر آيدى إلى لأدب والصور الجميلة لأنها تجذب العناء وأصول البعة والشعر، ناهيك بحسبهم البار في أكثر الأحيان ويذكر الجاحظ أن الخليفة المأمون ابتاع إحدى لبيان، وسمها مكر بعشرة آلاف درهم<sup>(2)</sup>. وقد وضع أبو عثمان رسالة خاصة في الحوار المعبت واصفاً وسائل الإغراء التي كُنَّ يلجأ إليها ومحدراً من عواقب الاستسلام إلى مكرهن.

«كيف نسلم القصة من لفة، أو يمكنها أن تكون عقيمة. وإنما تكسب الأهواء، وتعلم الألس والأحلاق بالنسأ وهي إنما تشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصوف اللعب والأحيث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة حد، ولا يرجع إلى فقه ولا دين، ولا صيانة مروية، وتروي الحادقة مهن أربعة آلاف صوت فصعداً، يكون الصوت فيما بين اليتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من

(1) البحلاء، صفحة 118

(2) ثلاث رسائل بشكل، صفحة 61

الشعر إذ صرت بعضه بعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن عفة، ولا ترهب عن عقاب، ولا برعب في ثواب، وإنما بُيئت كلها على ذكر ربى وانقيادة، ولعشق والصورة، والشوق والعممة، ثم لا تملك من الدراسة لصاعنتها، مككة عبيها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله نجيش، وإشدهم مرودة، وهي مصطرة إن ذلك في صاعنتها، لأنها إن جففت تفلت، وإن أهملها هضت، وإن لم يستعد منها وفقت، وكل وافق فإلى نقصان أقرب، وإنما فرق ما بين أصحاب الصاعات، وبين من لا يحسبها، التريّد فيها، والمواظبة عليها، فهي لو أراد الهدي ما تعرفه، ولو لعب العفة لم تقدر عليها»

لكن أما عثمان، وقد عرف المحور واستعدده، لا يثبت أن يرفع النعة عن أيديهم لأنها بحكم حوتهم الخاص، البعيد عن كل نكحة دنية أو ربة أخلاقه، مسوقات حتماً إلى مثل هذا المصير

## العناء والحمر

أما العناء فيرى المحافظ فيه منعه فيه أولاً وآخراً، لا سيما عندما تكون المنقطوعة لمعانة شعري شحي الوقع، صادق البرة، فهو إذ يتناول عرساً هذا الصباح عنه ويدحض كل دريعة لحريمه ولمد يحرمونه - يقول أبو عثمان - لأنه يلهي عن الصلاة، فلماذا لا يمعور إذن لأحاديث والمشارب والمأكّل والصد والزهوة والرواج كذلك ولكنها يهني عن الصلاة

لكن المحافظ إن استطاع أن يدافع عن العناء ويحاجّ حصومه بشدة، فإنه كان أحفظ صوتاً بصدد الحمر والحمر، كما هو معلوم، يحرمه الإسلام، فكان يتعاطاه السيمور في الداء سرّاً ثم علناً وقد حصّ المحافظ الحمر والبيد بأكثر من رسالة وصف فيها أنواع الحمر وخصائصها وبين ما هو المحرم منها، وما هو المباح، وحذر من الإفراط في السكر لأن السكر يفقد وعيه ويُقدم على أفعى المحرمات.

## الحقل الديني السياسي

ما كنا نبحث به بالحقبة الدينية هو أن الشؤون الاجتماعية والدينية في الإسلام ما زالت تحت تدحرجات جعل الفصل بينها مستحيلًا فالقرآن ليس للمسلمين الكتاب المقدس وحسب، أي أساس حياتهم الدينية، بل هو أيضًا لمصدر النظري لكل سلطه سياسية ومبدأ كل إدارة اجتماعية.

ونظرًا لمفهوم «التيوقراطي»<sup>(١)</sup> مجتمع الإسلام كان لشرعية أن تدبر علاقات الشعب وأسباب حياتهم. وما كان لحفظ، لمحدد المعتزلي، إلا ليعكس في آثاره هذا الوجه الاجتماعي. فإذا الشعور الديني يحافظ الكثير من أعماله ويوحى إليه معصم آثاره.

كانت حماسة التقديس الموجهة ضد خصوم الإسلام تخدم في آن واحد مذهب الاعتزالي وأسياده العباسيين. وكان هؤلاء الخصوم قسمي: فئة الكفار، وهي تشمل الأقباط بدسة و الدهرية، وفئة الفرق الإسلامية المتأثرة.

### الأقليات الدينية والدينية

أما الأقليات الدينية فكانت تتألف خصوصاً من الصاري واليهود والبرادشة والمناويين، وكانت تنصب دوراً حقيقياً في شؤون الإدارة وهي سائر الأعمال والعلوم وقد روى الخياط على لسان طبيب يدعى أسد بن حابي أسباب فشل هدامي الطائفة قال:

(١) مجتمع تُعتبر المسببة فيه منبثقا من الله

سنة سائ... سنة و... الأمر... سنة، وات عام، و... صير وخدمه،  
 و... بيان، ومعرفة، فمن أين نرى في هذه الكساد؟ ول... أما واحدة في عيهم  
 مسلم، وقد أعقد يقوم قل أن أنقلب، لا بل أن أحق، أن المسلمين لا يفلحون  
 في لقلب... واسمي أسد، وكان يعني أن يكون اسمي صليبا وحرثين ويوحنا  
 وبر... وكنتي أبو حارث، وكان يعني أن تكون أبو عيسى، وأبو ركريا<sup>(1)</sup>  
 وهذا التدمير ن دل على شيء، فيما يدل على مرلة الأقليات الدينية، ولا سيما  
 البصري، في حقن الطب ذلك العهد.

أما الدهرية، وأتاعها ملحدون أصلاً، فكان وضعها غير معترف به قانوناً  
 ورغم هذا كان لها نفوذ على عامة المسلمين.

ورغم في بشر الإسلام وتوطيد دعائمها، دُنب الحاحط، رضاء بعض أوبائه،  
 في درس مختلف الأقليات الدينية والدهرية راحصا ححيحه ومرراً أسباب  
 نفوذهم العابر.

بالسنة لنحطوه الكيرة اني كانت نعم ما هذه الأقليات، ولا سيما  
 البصري، كان المسلمون يحشون خطر عالمهم خصوصاً عندما أطلفت حرية  
 القول في رمس للمأمون وقد بيع الخوف بالموكل حياً، سنة 835 (836 هـ)، جعله  
 يريد من صرامه الفوريين بحققها كمعها مثلاً من ركوب الخيل، أو حمل السلاح،  
 أو ب... المنعبد الحديدة. وتبريراً لهذا التصرف كلف الحقيقه لعباسي وريره الفصح  
 ابن حبان أن يُثير، بواسطة الحاحط، موحدة من الحقد عيها فكس أبو عثمان  
 رسالته «الرد على البصري» يحمل في عني أهل لكتاب «نُشبهة المُشركين».

في هذه الرسالة الصادرة حاول الحاحط أن يدحض حجج البصري ويرهن  
 على... الوحي لأبي برل حرياً على ليهود والمسيحيين فشتوهود ثم جاء بي  
 الإسلام يعد له حرمة ويصونه تم يقضي في تعداد الأسباب التي جعلت لأهل  
 الخبايا... عام، والبصري، بوجه خاص، لث الحرمة المبردة فيرو، في

(1) السجلا، صفحة 2.

مراكهم وملابسهم وصاعنتهم<sup>(1)</sup> :

«اتخذوا البرادين الشهيرة، والخيل العتاك، واتخذوا الخوقات، وصرخوا بالصواحجة وتحذقوا لمدسي، ولسوا المنجم والمطبعة، واتخذوا الشاكرية، وتسموا بالخنس والحسين والعاس والفصل وعلي واكتبوا بذلك أجمع. فرعب إليهم المسموم وترك كثير منهم عقد الرمان، وعقده آخرون دود ثيابهم، رامت كثير من كرتهم من إعط، الحرية وانموا، مع اقدارهم من دفعها، وسوا من سبهم، وصرخوا من صرهم، وما لا يفعلون ذلك وأكثر منه».

أما شر هؤلاء، لذي حشيه العاسيون وعتر عه الخاحط فهو أنهم كانوا «يشعرون الماقتصر من أحاديثا، ولصعيف بالإسناد من روايتا، والمتشابه من أي كتابا، ثم يحسبون بضعفات، ويسألون عنها عواما، مع ما قد يعمون من مسائل الملحدين والرافقة الملاحين، وحتى مع ذلك ربما نراؤا إلى علمائنا، وأهل الأقدار ما، وشعور عني القوي، ويسعون عني الصعيف، ومن البلاء أن كل ساد من المسلمين يرى أنه متكلم، وأنه ليس أحد أحق بمحاكاة الملحدين من أحد، وبعد هؤلاء مكلمو النصارى وأطباؤهم ومخموهم ما صار إلى أعياننا وطرفنا ونحنا وحدا شيء من كتب الديه والديبابة والمرقوبة والهلالية، ولم عرفوا غير كتاب الله تعالى، وسه سه سورة ولكاتب تلك الكتب مسورة عبد أهلها، غنابة في أي ورثتها، فكل سحبه عين رأبها في أحداثنا وأعسانا فمن قولهم كان أولها<sup>(2)</sup>».

## التبانية

وما كان انعاسيون كذلك يظرون بعين الرصي إلى نشاط أتباع ررداشت وماي اللدين ينسبون الخلق إلى مبدئين متنافسين، مبدأ الخير ومبدأ الشر، لذلك

(1) على هامش الكامل، 1702

(2) على هامش الكامل، 1742

وحب على الخاطئ أن يشهر قنمه مسداً شقراً على غير هواه « ويرغم  
 رادشت، وهو مذهب المحوس، أن الفأرة من حق الله، وأن السور من حق  
 الشهبان، وهو إبليس، وهو هرم من، فإذا قل له: كيف تقول ذلك، ولأفارة  
 مفسدة، تحب فتية المصاح، فتحرق بذلك البيت، والقبائل الكثيرة، والمدن  
 العظام، والأرباص لواسعة في فيها من الناس والحيوان ولأموال وتقرص دور  
 العلم، وكتب الله، ودقائق الحساب والصكوك والشروط، وتقرص الثياب،  
 وربما ملئت القطر لأكمل بذر، فتدع النجاش عريالاً، وتقرص الحرب، وأوكية  
 الأسقية، والأرفق، وأمر بفتح حرج جمع ما فيها، وتقع في الآلة وفي السر،  
 لعموت فيه، وتحوح الناس إلى مؤن عظام وربما عصت بحل الماء، وربما قلت  
 الإنسان بعصها، والفأر بحرسه ربما قطعت أذن الرجل، وحردها إبطكية  
 لعمر عنها السائير، وقد حلا عنها قوم، وكرهها آخرون، لمكان حردها، وهي  
 التي فحرت المسنة حتى كان ذلك سبب الخسر بأرضها، وهي المصروب  
 بها المثل، وسيل العرم في بؤرح برمانه العرب، والعزم مسنة، وإنما كان حردها،  
 ويقتل النحل والفصيل، وتحرب الصبيغة، وتأتي عني أرمه بركب واخطم،  
 وغير ذلك من الأموال والناس رعى الحسو السائير يدفعوا بها نوائق النصار،  
 فلا يف صار خلق البصر لمسد من الله، وخلق الدرع من حبو لشيطان؟ والسور  
 يهادي به عني كل شيء حبه الشيطان، من الحيت والعقارب، والمجعلان وساب  
 وردن، والفأرة لا فع لها، وموئها عظيمة؟ فقال: لأن السور لو نال في البحر  
 مثل عشرة آلاف سمكة! فهل سمعت بحجة قص، أو بحيلة، أو بأصحوكة، أو  
 بالام، ظهر عني تلقيح هرة يلع مؤن هذا الاعتلال؟ فالحمد لله الذي كان هذا  
 مقدار عقولهم وأحيارهم»<sup>(1)</sup>.

أما أتبع لما يويه يرى فهم الخاطئ أساساً جهنوا الأسباب والمعاني وقصرو  
 عن تأمل الصواب فحرجوا إلى المحمود والكيب حتى أنكروا حق الأشياء.

(1) كتاب الحيوان، ج 4، صفحة 99.

«صواباً نوباً بهمان لا صعه فيه ولا تقدير . فكأنوا تمزله عمنان دحوا داراً . سب من ماء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها من صروب الأطلعة والأشربة والمآدب ، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا بسعون فيه محجراً به أنصارهم فلا يصرون هيئته انداز وما أعد فيها ، ورمى غير الواحد منهم بالشئ ، قد وضع في موضعه وأعد لشئيه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فهدم وتسحط ودم الدار وبانها» .

## الدهرية

«ان تعرف الدهرية أولئك الذين كانوا لا يعتقدون لا الله الأحد ، ولا بالعلم ، ولا بالعبادة الإلهية ، وبشجون كل تعاليم الأديان بما فيها العفاف والنزاهة هي الآخرة ويؤمنون بأولية الرمان والدة . ويذكر أبو عثمان في سياق تعريف الدهري أنه قالهم سباً ، بين القسح عده إلا ما حالف هواه ، وإن مدار الأمر على الإحسان والبر ، وعلى البدة والأمان ، وإلهم الصواب فيما كان من البصيرة ، وإن قتل ألف إنسان صالح ليل الدرهم<sup>(1)</sup> .

\* \* \*

في حمله هذه على الأقباط نديية والدهرية ما حذر احاطت القصيدة العاسية وحسب ، بل حذر أيضاً وخصوصاً عقيدته المعتزلية ، وقد نصّ أحدُ أصولها خمسة ، أصل التوحيد ، على ما به أنصار الشيعة (ررادشه وماويين) والمشبه (بصري ، يهود) وبفدة وحواء الله (الدهرية) ، فأصاب هدفين برمية واحدة .

(1) كتاب الحيوان ، ج 7 ، صفحة 6

(2) الذين يشبهون العبادة بالناس ، يرون أنهم صوابون .

## الفرق الإسلامية

إن المبدأ عينه الذي حمل المعتزلة على محاربة سائر الأديان جميعهم يصاً على مكافحة الفرق ولأحزاب الامة الأخرى وكان الخط الداعة الأول في هذا النسل ، لا سيما أن مصلحة العباسيين كانت بقضي بذلك وبني هذه الفرق واشتيع ولأحزاب انتقد الحاحط خصوصاً الحشوية والرافضة والامويين والشعوبيين .

### الحشوية والبابنة

كان العام لإسلامي في العصر العباسي مقسماً إلى معسكرين معسكر الحشوية والعمدة ، ومعسكر البلاط والمعتزلة . كان الأولون يتشون بحرفيه العرب والتقيد وبؤمور بالشس ، وكانوا يتمثلون الله وبعيدان وحلال وعيب ، وهذا أمر تأباه المعتزلة فضلاً

أم لبابة فهي قسم من الحشوية وقد كان الخط عبقاً في الرد على هذه الفئة التي كانت تتكثر يوماً ف يوماً ، ورده عبقاً تواطؤهم ولأمويين على رعرعة أسس الخلافة القائمة .

### الرافضة

بعد تحمي حسن بن علي تفرقت الشعة في البلاد الإسلامية وعمت في الخفاء على استرخاء وحديث وبقوده اصابع كان دأبها في الخنس المديني تمجد شخصية لإمام علي وإقامة ما شب حديثه مثل لكن الاختلاف فيما بينها على وضع أسس مشتركة في العنيدة والعمل فتمتصيا عرفاً ومدرس شتى يكاد لا يجمع بينها إلا الانتساب للإمام العظيم .



في تحييه هذه الفرق واندارس عند بحثه مختلف ابو صبيح ، كان الجاحظ يميز بين فرعين لربدية ، أي الشيعة المعتدلة ، والرافضة ، أي الشيعة المتطرفة

وما كان العباسيون يعتبرون أنهم هم «أهل البيت» الحقيقيون ، فقد سعوا إلى الخط من المقام الرفيع الذي تبوأه الإله م عني بفصل الرافضة ، كما سعوا إلى استماله الرياية التي كانت على علاقه صميمية وثيقة بالمعربة وهذه العلاقة لم تقتصر على الساحة اللاهوتية وحدها من تناولت بعض العقائد الدينية والسياسية وهذا ما يبرر تحفظ الجاحظ بصددهم عندما كان يشن على علاه الشيعة هجماته لضعفه .

كان الجاحظ ، في نقده الرافضة ، يُشبهها بالمناوية ناره ناساً إليها الرندقة وبالحنوية أو بالدميين تارة أخرى عارياً إليها التشبيه

وفي عمرة اندفاعه الجامح كتب أبو عثمان رسالتين «لعثمانية» و«مسائل العثمانية» حول فبهما لرهمة عني عظمة أبي بكر ، كما حاول أن يبرهن عني عظمة معاوية في رسالة «الإمامة» ، ثم ناقض نفسه عندما حطّ من شأن هذا الخليفة الأموي في غير محال .

## الأمويون

حشي العباسيون دائماً رده فعل انقلابية يقوم بها للأمويون فكان دأبهم أبدأ احصاص شأنهم وتألّب الناس عيهم لدا حمل دعائهم ، والجاحظ في لطبعه ، حملة شديدة عيهم

نقد طاب لأبي عثمان أن يحمل عني الأمويين لسيين بررين ، أولاً لأهم أعداء بني العباس ، وليء نعمته ثم لأنهم قتلوا الشهيد المعتزلي عبلان اندمشي<sup>(1)</sup>

كانت مهمته دقيقة حرجة في هذه السبق فكيف نره يشنع بني أمية ولا يمس أباء عمومهم ، العباسيين غير أنه استطاع ، بفصل لفاقته ، أن يُحسّن التحصن

(1) عنه هشام بن عبد الملك

فهي رسالته «فصل هاشم عن عبد شمس» أقرَّ بعض صفات لعبد شمس، حدَّ  
الأمويين، ثم استدرك فأعلن أن هؤلاء دون الهاشميين، أجداد بني العباس مرلة،  
وخلص إلى إنكار حقهم بالخلافة.

وما اكتمى لاحظ بأن سب اعتصاب الخلافة إلى معاوية وسلالته، بن شبه  
أنصاره بالباطل، وعرا إليهم من الهرطقة ألواناً.

## الشعبوية

بعد الملاحظات الواسعة التي حققها للإسلام لم بعد دين شعب مصطفى عليه،  
بل أصبح ديناً عدياً ولا عرو وقد اعفته عبصر معددة الأحاس والبلاد  
عُرفت بسوالي وهؤلاء، رغم استعراهم من حيث البعة، ما كانوا ليصرحوا  
بالمجموعه العربية ويتكروا لمصيدهم ونقلدهم وعدانهم

كان مُعظم الموالي من أهل فارس، وكانوا يحتفون ثمناً عن المُعتبر القدمي  
في الإسلام (كجدِّ الخاطط) الذين سوا أو حاولوا أن يسوا أصيدهم الأحسي  
ليذوبوا في البوتقة العربية الكبرى.

بعد أن تدقق الموال، المعروفون شفافهم وبراعتهم في الأعمال، نحو العرف،  
أحد الانقسام بين الحصر، وجلَّهم من سوالي والبدو، يمر يوماً فيوماً صار  
الأولون يتولون تدريجاً شؤون البلاد العامة ويديرون مورها وما اشبه العباسيون  
بلى هذا الخطر إلا بعد أن ستمحل، فعنأوا كن قواهم لصدِّ تيار الشعبويه وهذه  
الفئة، كما هو معروف، تقوى بالمساواة بين الأحاس في الإسلام ولا فصل على  
آخر إلا بسة تقره، وهي سكر بالثاني على العرب أي أفصلية.

وردت عنى الشعبوية ودُعائها، وضع الخاطط كتابيه «البيان والتبيين»  
و«البحلاء» وعده رسائل، يعضم شأن العرب في حصرتهم وآدابهم وتاريخهم،  
حاملاً عنى الشعبويين المتستريين بالإسلام سحر البردة الصادره عن مدهي  
ررادشت وماني حيث له دعوة بحصرة الفارسية ومحد بني ساسان

«واعلم أنك لم يرقماً أنتقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على ديه ولا  
أشدّ اسهلاً كالعرضه ، ولا أطول نصب ، ولا تقلّ عساً من أهل مدد لحة ، وقد  
شمى لصدور منهم عجم طول حثوم الحسد على أكادهم ، وتوقد نار الشآ في  
قربهم ، وعسا تلك المراحل عثرة ، وتسقر تلك البراب المصطرفة ، ولو عرفوا  
أحلاق كل مئة ، وري كل لغة ، وعلمهم في أحلاف بشارتهم ولاتهم وشمالهم  
وهماتهم ، وما علة كل شيء من ديت ولم يحتفوه ، وهم يكفرون لأراحوا أنفسهم ،  
وتخففت مؤنتهم على من حالقهم»<sup>(١)</sup> .

بما دعا إليهم كل أسباب الضور الديني والشكك في العقيدة ، وما ترك قبيحة  
إلا وانصفا بهم ، كما شأن في كل حملاته على من عصب هو العباس عليهم .

## فئات المجتمع

أدحت للحاحظ ظروف حياته أن يتصل بمعظم طبقات المجتمع ويعاينها فيدرسها بتدقيق من الخليفة والبلاط ، إلى السور حورية المستحدثة ، إلى أصحاب الصاعات ، إلى حمهور العامة ، بصور نارية ويمدح نارية ويقدمح ناراب .  
فما هي أهم الفئات التي لفتته خصوصاً فتاولها قدمه ؟

### الخليفة والبلاط

كان للخليفة حرمة فريدة من الحاحظ فهو لم يكن أمير المؤمنين وخليفه النبي الكريم فحسب ، بل كان عاهلاً رمزياً ورئيساً ديتاً ، يوم لم يكن ثمة رسوم يحد من سطة العاهل ، وهي سطة تمد من بلاد الصين إلى بحر الأبيض المتوسط رغم أن الحاحظ لم يكن من حاشية البلاط ، فقد كان له من النفوذ الأدبي ما أتاح له أن يلام غير خليفة ووزير ، ويعرف دجال الأمور لبطعها عليها بدفته اليهود فقد روى أن بعض الخلفاء كان يستند الأحمر ويستعد الصوت الحسن ، وأن المهدي هام بحارية اسمها « جوهر » أوحى إليه بعض لشعر .

وأشار الحاحظ إلى معالاب عصرية تنبع عن عقيدة ملوك واسماصهم كما تظهر سطوتهم على الشعب وروى أن سعة صدر الخلفاء أحدثت لأداء والعلماء ولصاين إليهم فتصرو في حصرتهم ، في شؤون الدعة والأرب والفسفة والقديون ، وحتى في قضايا السياسة والدين وأصاف مؤكداً أن الخلفاء وورراءهم ما أبدوا فقط تساهلاً في مثل هذه الأمور بل شجعوها واشتركوا فيها . وكثيراً ما نوقشت ، أمام أمير المؤمنين نفسه ، قصص تحالف ربي المسميين في الله وخلق

لم يستأثر الخاحط وحده بذكر هذه الوقائع، بل أوردده أيضاً المسعودي والأصعهاي وابن قتيبة وغيرهم من كتّاب العصر

ومن مسائل بني دونهما أبو عثمان مرسوم البياقة المتبعة في التعرية وما إليها من محاملات البلاط<sup>(1)</sup> ومفروشات المحاليس في الصيف والشتاء<sup>(2)</sup>، والمآكل التي كان يؤثرها الخلفاء على سواها<sup>(3)</sup>.

إلا أن في البوحة التي رسمها صاحبنا عن حياة الخلفاء والمقرئين منهم لمسات تعورها الخرافة. والملدات المتطرفة أحياناً التي كانت تُعقد حقائنها في القصور، والتي أفاد المسعودي والأصعهاي (في مروج الذهب والأعالي) في وصفها مرة عبها الخاحط مروراً حاطفاً. وقد أعصى كدث عن استداد العظماء وشذوذهم وأطوارهم ولم يشر إليها إلا مداورة، فصَحَّ فيه قول لشاعر.

«وعن انرصي عن كل عيب كيدية»

\* \* \*

## المشعودون

كانت الثقافة الصحبحة التي تشبع منها الخاحط وقفاً على فئة محدودة من الناس أما عامة الشعب فكانت قابعة بجهنمها يروقها هوس العاطفة وتندبها أوهام الخيال كدر من الطبيعي في مثل هذه الحال أن يكثر المشعودون وأصرابهم فيهدوا من سداحه السطاء والبدئين، فإذا هذا طيب يرغم أملاك الدنيا الشمس لكل علة، وإذا هذا منجم يسك مفتاح عيب، وإذا هذا لك ساحر كيف على هواه مصابر

(1) البيه والنبير، ج 3، صفحة 214-2

(2) البيه والنبير، ج 3، صفحة 66

(3) الحيون، ج 1، صفحة 283.

البشر ، فضلاً عن المفسرين من أصحاب الحل والربط في بؤع النعيم ولئن حمل الجاحظ على حد ع هؤلاء المستثمرين ، فهو لم يرحم سداحة صحاياهم ، فشمس الفتين بقمته كما سري .

## الأطباء

ما استهدف الجاحظ في هذه لأطباء ، بوجه عام ، بل المربين منهم أو ذوي الخشع . أما الحقنقون أصحاب الرسالة من تلامذة حانيوس وأبقراط وبحتيشوع فكان يحنهم ويستشهد بأرائهم كلما تطرق لمضيه علمية لها علاقة بهم

على المربين لأعبيء كانت شهادته قطعه مرمة بفصي بقطع دابرهم لا سيما إن لعب بهم العرور أم عن ذوي الخشع فيقول لا يردد إهم يهلون لا تشتر المرض حتى تفتح أمامهم أبواب الررق . فلو أرشدو إلى ما يحسم العمل لبرت سوقهم حمداً ، ومن هه كار شرهم أكيداً

## المحمون

رأى الجاحظ خطر لمحمين أشد أثراً من خطر الدخلين من الأطباء ، لأنهم يرعمون السوف بالمستقل واكتشاف العيب عن طريق الكواكب فنسبهم العامة لشعوردهم وتشبههم بالأساء وقد دفع صاحبنا إلى مقارنتهم أمرا مهمان بالنسة إليه . أولهما إثبات صحة نوة رسول المسلمين ، محمد بن عبد الله ، وقد شاء بعضهم أن يشك فيها ، ثم بزعه الفطرية إلى قمع العش آنى واحد .

وفي سبيل فصيح أكاديب لمحمين عمد الجاحظ إلى مقارنتهم برسل السماء ليس بعد الشقة بين المريقين فالمحمون في رأيه ، قلما يصيون الحقيقة فيما الأساء معصومون من الضلال ولكن لمحمين ، مع هذا ، أثرهم على العامة ، فهم إذا كذبوا لا يكشف كذبهم على الو ، لأنهم يتحدثون عن المستقل . أما إذ صحت مصادقة إحدى نوءاتهم المرعومة فمجدهم وطيد مستمر<sup>(١)</sup>

( ) شموعه دسائن الجاحظ ، صفحة 139

وعلى طريقته الهزلية المأثوفة شبه الخحط المحمين باله خالين من الأطء،  
أولئك الذين إ ب ماب مريضهم سبوا مونه إلى الأقدار، وإ ب شفي، وقنما يشعي،  
تجّحوا بفعالية العلاج

ولم يفر د صاحب باحمله على المحمين درءاً لشهرهم المسطير، بل حمل معه  
عشهم غير ثائر وشاعر "ما سهل أبو تمام قصيدته في تهئة المعنصم بفتح عمورية  
مدد، بأكايت للمحمين؟"

### المفسرون

جعل الجاحظ في فئة المشعورين بعض جهه من مفسري القرآن والحديث  
مهماً بارراً، ووضع في طبيعتهم نفاص الدين كانوا يقيمون الأحاديث  
حسب أهوائهم ومصالحهم فعنى عرر المحمي والسحرة كاب بعض القصاصين  
يتعشون من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة كانوا يؤولون ويشوهونها  
قصداً تدغم سبطانهم على العمة وكان على الجاحظ أن يرفع سار لشعودة  
عن هؤلاء المفسرين المسوهم وبعضهم بوايهم الدينية وحقيقة يعودهم رافض  
وسية لحأ إليها لإظهار سخافتهم كاب سرد بعض تفسيراتهم معفاً عليها نارة  
ومسعيباً عن التعليق طوراً، وفي هذا يقول.

«رغم بعض المفسرين أن السور خلق من عطسة الأسد، وأن الخبر خلق  
من عطسة الفيل، لأن صاحب التفسير يرعمون أن أهل سبعة نوح لما تأوا من  
كثرة القار وشكوا إلى نوح دك سأل ربه الفرح، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس  
فما عطس حرح من محريه روح ساير، ذكر وشي، حرح الذكر من اسحر  
الأمس، والأشي من المسحر لأيسر، فكفهم مؤونة الخرداب ولد تأدوا برائحه  
نحوهما شكوا دك إلى نوح فشكا دك إلى ربه، فأمره أن يأمر الفيل فيسبح،  
فسبح روح حارير، فكفهم مؤونة ر نحة البحر وهذا الحديث وفق عبد العوام

(1) السيف أصدق أبء من الكتب

وعند بعض القصاص، وقد أنكروا أن يكون القار تحقق إلا في أرحام أمهاتهم من  
«صلاّب دكورها»<sup>(1)</sup>

وفي مجالات أخرى يحد المحاط مراعاة هؤلاء المشعورين بصدد الحرّ  
والنباض والعول والحيات ويدعو لعامة إلى إلقاء حدائهم وإغلاق باب الارترق  
في وجههم<sup>(2)</sup>

«لا تسترسوا إلى كثير من المفسرين، وإن تصورا أنفسهم لعامة، وأجابوا  
في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية، على غير أساس، وكما كان  
لمفسر أعرب عنهم، كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة والكسي السري  
والضحاك ومقاتل بن سيمان وأبو بكر الأصبم في سسل و حدة، فكيف أثق  
بتفسير، وأسكن، إلى صوابه، وقد قلوا في قوله سرّ وحلّ (وإن المساحد لله)،  
إن الله عزّ وجلّ لم يعر بهذا الكلام مساحداً الذي صي فيها، بل إنما عني الخساء  
وكل ما سجد الس عليه من يد ورجل وحنّة وأف رثّة، وقالوا في قوله  
بعدى. ﴿أبلا مطروك إلى الإبل كيف خلقت﴾، إنه ليس الحمل والوق، إنما  
يعني السحاب، وإد سئوا عن قوله ﴿ووضح مصود﴾، قالوا الطبع هو المور،  
وحصوا الدين على أن شهر رمضان كان فرضاً على جميع الأمم، وإن أساس  
غيره، فوه تعالى ﴿كس عليكم الصيام كما كس على الدين من قبلكم﴾،  
وقالوا في قوله تعالى ﴿رب م حشري أعمى وقد كنت بصير﴾، قالوا يعني  
إن حشره بلا حجة، وقالوا في قوله تعالى ﴿وإن لمطمع﴾ والويل وإد في  
حهم، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي، ومعنى الويل في كلام العرب معروف،  
وكيف كان اجهلية قبل الإسلام؟ وهو من أشهر كلامهم، وسئلوا عن قوله  
تعالى ﴿من أعور برأى﴾، قوا لصق رد في حهم، ثم قعدوا يصفونه،  
وقل آحرون الملق المقطرة سعة لبس، وقال آحرون في قوله تعالى ﴿عب فيها

(1) الحيوان، ج ٩، صفحة ٦٦

(2) الحيوان، ج 4، صفحة 164؛ ج 5، صفحة 4؛ ج 2، الح



تسمى سببياً» ، فالو أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة بعض ، قانوا : وإنما هي : سن سبباً إلهي با محمد ، فإن كن كما قالوا فأين معنى «تسمى» وعلى أي شيء وقع قوله «تسمى» ، فتسمى ماذا ؟ وما ذلك الشيء ؟...

## المعلمون

لم تكن للمعلمين سمعة طيبة عند العرب على وجه العموم ، وقد يكون ذلك نتيجة راسب من العهد الذي كان فيه المعلمون عبيداً أو يهوداً<sup>(١)</sup> ، أو نتيجة سوء مسلك بعضهم وحقاره فوسهم

وقد وصح المحاضر رسالة خاصة في المعلمين ، صاع أكثرها ، صممتها كانت قارصة لنحط من قدرهم .

بقول أبو عثمان في مقدمة إحدى حكاياته أنه كتب كتاباً عن المعلمين وبهماتهم ، ثم اتهم له أن عبر على كتاب فوجد معيماً في هيئته حسه وقممش مسح ، قم إليه وأجلسه معه فآخه أبو عثمان في القرآن فبدأ هو ماهر ، وفي شيء من الحروف بدأ هو ماهر ، ثم في أشعار العرب واللغة ، فبدأ به كامل في جميع ما يُراد منه ، فقل في نفسه لا بد من صرف النظر عن كتاب المعلمين وكان كل قيل بتفقهه وبروره . إلا إنه أتى يوماً لزيارته فوجد الكتاب معلقاً وهو يروي المحاضر الواقعة بنفسه بقول :

«فسألت حيرانه . فقالوا : مات عمده ميت . فقلت . أروح أعريه فحنت إلى يابه فطرفته فحرحت إلى حارية قالت : ما تريد ؟ قلت : مولاك فقلت مولاي جالس وحده في العراء ما يعطي لأحد الطريق قلب . فولي له صديقك فلان يطلب أن يعرك فدحت وحرحت وقلت بسم الله فعبرت إليه فبدأ هو جالس وحده ، فقلت أعظم الله أحرك . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، وهذا سبيل لا بد منه فليكن الصبر ثم قلت أهذا الذي توفي ولدك ؟

(١) موسوعة الإسلام ، ج 3 ، صفحة 41

قال : لا . فنت هو الذي ؟ قال : لا . فأتيت . فقلت : لا . قلت : فمت ؟ ..  
 قال : حبيبي . فقلت في نفسي . هذا أولى الناس . وقلت له : سبحان الله . تحد  
 غيرها . وتقع عيبك على أحسن منها . فقال . وكأي بك وقد طست أسي رأيتها .  
 ففقت في نفسي . هذه محبة ثاية . ثم قلت . وكيف عشقت من لا رأيتته ؟  
 فقال : اعلم أبي كنت حالسا وقد راح عابر يعني وهو يقول

يا أم عمرو حراك الله مكرمة رذي عبي فودي أجمما كانا

«فقلت في نفسي . نولا أن م عمرو هذه ما في الدب مشها ما كان الشعرء  
 يتعلمون بها . وما كان بعد يومين غير علي ذلك لرحل وهو يعني ويقول .

دا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

«فعلمت أنها ماتت . فحريت عليها وفعلت في العراء مند ثلاثة أيام . فقال

الملاحظ : فعادت عريمتي وقويت عني كدبه الدور الحكية أم عمرو

وتنسب إلى الملاحظ عدة حوادث على هذا الطراز نورد منها على سبيل المثال :

«مررتُ بمعجم صبيان وعدده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل

وبرق . فقلت : ما هذه ؟ قال : عندي صغار أوبس فأقول لأحدهم قرأ لوجه

فيصير بي فأصربه بالعصا القصيرة فتأخر . فأصربه بالعصا الطويلة فيمر من

بين يدي . فأصع الكرة في الصولجان وأصربه فأشحه . فيقوم إلي الصغار كنهم

بالألواح . فأجعل الطبل في عنقي وأنوق في فمي وأصرب لطلبل وأنصح في

البق . فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم»<sup>١</sup>

«مررتُ على حربة فإذا بها معجم وهو يسبح سيح لكلا ب . فوقفتم أنظر إليه .

وإذا بصبي قد حرج من در فقصر عليه المعجم وحل بمطمه ويسه . ففقت .

عرفني حربه فقال : هذا صبي لثيم يكره التعيم ويهرب ويدخل الدار ولا

يخرج . وله كب يعب به فإذا سمع صوتي صرَّ أنه صرَّت الكلب فبحرج

فأمسكه»

(١) رسالة المعجم

« رأيت معصاً في الكتاب وحده، فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون فقتل: أحب أن أراهم فقال ما أشير عيتك بدست فقتل لا بد. قال: وقد حئت إلى رأس الدرب أكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعصم فيصنعواك حتى تعمى»

غير أن الملاحظ أن هري بالمعلمين الذين كانوا من لفئة التي ذكرنا ما شهدنا، فهو قد منح غيرهم تمس شرفوا مهنتهم ورفعوها إلى مستوى لرسالة حيث يجب أن يكون، وقد به لا يسمه مطلقاً بقول بعضهم إنه لا ينبغي أبداً أن يؤخذ رأي المعلم أو الراعي أو ربه النساء، ولا أن تقبل شهادتهم هي المحاكم<sup>(1)</sup>، أو قد يصححون، خلفاء وملاطين<sup>(2)</sup>

وبعد أن نُسَمِّي عدداً من المعلمين بارزين يقول أنه لا يجب أن تحتقر رسالة المعلم لمجرد محبة بعض المعلمين أو سوء تصرفهم، فهي مهنة العليم، كهي كل مهنة أخرى، عناصر بارزة وعناصر ترحف في الظلام<sup>(3)</sup>.

وطبعي أن يدافع الملاحظ عن المعلمين، وشفافة عنده حرمة ولا أرفع فالمعلمون والعلماء الذين حمل عيهم ليسوا إلا المشهودين والمستثمرين الذين كانوا يحقرون الثقافة ويسحقونها لاسرار مال السباح من الناس أما العلماء الحقيقيون فكان يرفعهم إلى الأوج

## الكتاب

هي أيام الإسلام الأول كان للكتاب مناصب خطيره، هي عيها التي شعلها للوراء من بعد على أثر إنشاء منصب لوزارة الرفيع هي عهد أبي العباس وأتباع الصريقة السلسلية في الإدارة. ومن ذلك الحين نصائل شأر هؤلاء فأصبحوا مأمورين عاديين

(1) البيان والبيان، ج 1، صفحة 208

(2) البيان والبيان، ج 1، صفحة 71

(3) البيان والبيان، ج 1، صفحة 76

وعلى رغم تيسر أوصاعهم من لبعضهم سي، من العود، لكنهم كانوا على الإحسان حساء، يعملون بروحي الدسائس. وكان همّهم الأوحاد الترقى في مناصبهم وفي سبيل تحقيق هدفهم كانت تهوى كل الوسائل والكراوات. وقد حصرت غير كاتب هذه الطلقة الوصلية بعض أدبه محاولاً أن يروّدها عما يلزمها من ثقافة ولياقة وأخلاق<sup>(1)</sup>

وقد حمل ادعاء هؤلاء الخاطب على بيان واقعهم كما هو، فرسوم لهم صوراً لا يجاريها دقة وظرفاً إلا صورته عن البحلاء، ومن هذه الصور

إنهم عرر يدعون الذكاء، إن مدحهم أحد الناس، لعبة في نفسه، فمأسوا كطاووس وحسبوا أنهم سادة الرأي وولاه الأمور فيقدر ما يحضرون لرؤسائهم بقدر ذلك يتكاثرون على عامة الناس<sup>(2)</sup>.

إنها نفسية المأمور الوصولي في كل زمان ومكان بعد أبو عثمان إلى صميمها كما نهد إلى أعماق بحيل أو حاسد كل عصر وعصر.

ويريد صاحب صورته توصيحاً فيقول إن مهمة الكاتب هي من المفارقة حتى لا يدرسها إلا الخدم والأساح وما إليهم. وليس في التاريخ عظيم راولها<sup>(3)</sup> ومع هذا يتباهى الكتاب بمهنتهم ويتفاخرون في الدح ولطهو، يظهر الأساد وحسب واحدهم أن يشعل مصباحاً ويرى أشعة أمامه ويحفظ شيئاً من نودو بررحمهم حتى يحال نفسه حكم الثقافة ورب الطولة.

وإذا ساءوا سمدي في إظهار عظمهم تطحوا لقد القرآن الكريم وتركبه وإن لم يحدوا عربياً يحملون عليه سحرهم فيما بينهم.

وروي حاحف أنه دخل يوماً ديوان مكاتبات في بغداد فرأى قوماً قد صبقوا ثيابهم وصعدوا عمامتهم ووشوا طرهم، فقال «هؤلاء كما قل الله تعالى فأما

(1) هؤلاء كرام المفسدين «صح الأعيان» «الصور» «ب» فيه في كتابهما «دب الكاتب»

(2) ثلاث رسائل مفكر، صفحة 40

(3) ثلاث رسائل مفكر، صفحة 42.

أريد فيذهب حذاء صواهر بطيعة، وبواض سحفة، فويل لهم مما كتبت بأيديهم  
وويل لهم مما يكسبون».

وما كان المسعودي ولا ابن قتيبة يوروان<sup>(1)</sup> يقدمهما اللادع عن هؤلاء لجهة  
المعطرسين، إلا أن تصوير الخاط، الكاريكاتوري يبقى فريداً في بابيه.

## التجار

إن حمل الخاط على الكتاب «الطرويس» فأرهبهم بسهم نقده، فقد امتدح  
استقلال التجار وعزة نفوسهم رأى أنهم أسعد خلق لأر لهم من القوة في  
بيوتهم ما لملوك على العروش فهم يسوء مرعمين على نوسل عمة العظماء،  
ولا على انقاء ردة فعلهم إن لهم حرمة شاملة ورأي مسموعاً، فكان من الطبيعي  
أن يكون همهم يهود كبير في كل مكان<sup>(2)</sup>.

وبدلاً على هوو تنحدره يذكر الخاط أن أسرة النبي الكريم قد عارستها  
واشتقت منها اسمها فكلمة قريش مشتقة من قروش. ومحمد بن عبد الله عسه  
راول التجارة في مرحلة من مراحل حياته<sup>(3)</sup>.

وإذا يظهر الخصائص الرمعة التي تُشير التحذر عن عامة الأثرياء لا بعض عن  
اتوضيح بأن يسرهم الماني ما كان يمنعهم عن تدقيق فصايا لفكر والهم معدداً  
على سبيل التدايل غير اسم معروف بينهم هي عالم الآداب والعلوم

لكنه إن أعجب بالتحذر المستقيم المخلص فلم يتوان عن القدر بالحسيين  
بسهم الدين يستثمرون، بدناء، سداحة الشعب، ولا أن يشع بالمرتقة عيب  
أندهم وقد ربا على ذلك أمثلة بديعة في وضعه المستثمرين الحلاء.

ولا بد لمن يسمع إشادة الخاط بالتجار واستغلائهم من أن يدرك مدى الأهم

(1) مروج الذهب، ج 6، صفحة 29-30 وأدب الكاتب، صفحة 7.

(2) مجموعة رسائل، صفحة 155.

(3) مجموعة رسائل، صفحة 157.

العميق الذي كان يساوره، لأنه كتب مصطراً لأن يصنع العصء حياً في سبيل تأمين ررقه فهو لو كان ميسوراً متحرراً لما كان يدفع هذا الاسداع في إعجابه بهم.

## المرحّمون

كان لحركة الترجمة أثرها الخير في ازدهار الحضرة العباسية، إلا أن هذه الترجمة ما كانت تحو أحاد من السواب، فإلزام في الصوص الترجمة كان شاعراً والتفسير السيء مألوفاً ومردد إلى قبه التعبير النقية في لغة الصاد بقدر ما مرده إلى الترجمة عن غير لأصل<sup>1</sup> أو إلى جهل بعض المترجمين

وكان عدم وثوقه بالمترجمين يدفعه إلى الخط من شأنهم ودحض الأكاديب التي يلحأون إليها لتبرير مواقفهم، وإلى فصيح غوراتهم وحطل تأه يلهم وتقدهم وكثيراً ما وجد بينهم وبين لسخرة أو الصيادين قرابة وثيقة من حيث المانعة أو التلغيق في سرد الأحبار والأساطير<sup>2</sup>.

في معرض نقد المترجمين يدي الخط ملاحظات قتمه بصدد الترجمة وصعوباتها وتعدر وعود المترجم الأمثل «إن المترجم لا يؤري أبداً ما قال الحكيم عني حصائص معديه، وحنائق مدهمه، ودقائق احصاراته، وحنفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيهها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يرم لم كيل ويحب على الحريء، وكيف يقدر على أدائها ونسليم معانيها، والأحبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم معانيها، واستعمال تصاريف لفاظتها، ونأويلات محارحها مثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن عمة وأبو فرقة وابن قهر وابن وهيب وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ومسي كان حاله مثل أفلاطون؟ ولا بد لترجمان من أن يكون بيانه هي نفس

(1) كواير حمون غالباً من السريانية في العربية والترجمة السريانية مأخوذة بدورها عن نيونانية

(2) الحيون، 6، صفحة 9 وصفحة 280

الترجمة هي وزن عظمه في نفس المعرفة، ويسعى أن يكون أعلم الناس بالغة المقولة  
والمقول إليها، حتى يكون فيها سواء وغاية، ومتى وحداه أيضاً قد تكلم بلسانين  
علم أنه قد أدخل الصم عنيهما، لأن كل واحد من العتين تحذب الأخرى،  
وتأخذ منها، وتعرض عليها، وكيف يكون تمكس الحساب مهما مجتمعين فيه  
كتمكسهما إذا مررد بالواحدة، وإيمانه قوة واحدة، فإن تكلم بعة واحدة، استغرقت  
بذك لقوة عنيهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لعين، على حساب ذلك تكون  
الترجمة لجميع السمات، وكما كان الباب من العنم أعسر وصيق والعنماء به أقل  
كان أشد على المترحم، وأحذر أن يحطى فيه، ولن تجد البتة مترحماً يهي بواحد  
من هؤلاء، هذا قولنا في كتب الهندسة والسجيم والحساب والسحور، فكيف لو  
كانت هذه الكتب كتب دين...<sup>(١)</sup>

وهذا الحكم لصارم في الظاهر لا يحلو من الموضوعية، وذلك لأن تعلم  
العبد في ذلك العهد ما كان عميقاً، والحدود قد كانت تقع أحشاء حسيمة وحتى  
أويلات معاكسة لمعنى المقصود. وكان يريد هذه الترجمة المشوهة تشويهاً  
جهل الساج ومن نتيجة لترجمة المعیوبة هذه أساء انعلاسة العرب الأولون  
فهم آثار البوب الفلسفية فعروا إلى «رسطو» بعض كتب أفلاطون وبروكليس،  
لكن الملاحظ كان حارماً في بهمة إمكان العمل الأمين، فكانه لم يكن شديد التفاضل  
بسيحة التقدم في علم السمات...

## البحريون

كان البحريون في عهد الملاحظ من الفئة السائرة التي تنجشم الأسعار البعيدة  
ونشاهد البلدان العريية، وكثيراً ما عاد هؤلاء إلى ديارهم مذهوشين بـ «رأوه  
علا يستطيعون السحير عن دهشهم إلا باحتلاق الأساطير. والناس «موكلون  
بحكمة كل عجيب، وميسرون للأحار عن كل عظيم، فصررت المثل بكذبهم  
وحرقتهم»

(١) الحيوان، ج ١، صفحة 38

كثيراً ما توقف أبو عثمان عند حكايات البحريين وفسهه ويتحدثه محاداً  
لنتهكم عليهم كما في قوله ، «رسمعت حديثاً من شيوخ ملاحى الموصل ، وأنا  
هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم ، ويتقله جميعهم ، ورعموا أن الأسد ربما  
جعل فقس السفينة ، فيتشبث به ليلاً ، وملاحون يمدون السفينة ، فلا يشكون  
إن القفس قد انتف على صحرة ، أو تعلق بحجم شجرة ، ومن عادتهم أن يبعثوا  
الأول من المدادين ليحمله ، فإذا رجع إليه الملاح ليمده الأسد بالأرض ، ورفق بها ،  
وعمص عييه كيلا يضر ويصهما بأليل ، وقد قرب منه وثب عليه فحطفه ، فلا  
يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم في الماء ، وعورهم إليه ، وربما أكله إلا ما  
بقي منه ، وربما حر فريسته إلى عريسه وعريه ، وإلى إحرائه وأسله ، وبذلك  
على أميال<sup>(١)</sup> .

ولكن لاحظ ، مع هذا كان يسند إلى احبار البحرى في تحقيقه لعلمية  
عدم يوق من صحتها ويتحدث حجة أحياناً في الرد على قصايا علميه لم يقتنع  
بها . وقد اتفق له أن استند إلى رأي أحد البحريين ليحاج أسطاطالس في بعض  
رده عيه :

«وقد قلت لرحل من البحرى ، رعم أسطاطالس أن السمكة لا تنزع الطعم  
أبدأ إلا ومعه شيء من ماء . مع سعة المدحج ، وشره النفس ، فكان من جوابه أن  
قال لي - ما يعبه هذا إلا من كب سمكة ، أو أحرته به سمكة ، أو حدثه بذلك  
الحواريون أصحاب عيسى ، فإنهم كانوا صيادين ، وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا  
البحري صاحب كلام ، وهو يتكلف معرفة العلق ، وهذا كله جوابه»<sup>(٢)</sup> .

إن دون هذان الاستشهاد عن البحرى إلى شيء وإنما يدلان على تحفظ المحقق  
في نقده طبقات المجتمع . فهو يميز دائماً في الطمعة الواحدة بين العصر الصالح  
والعصر لطالح مسنداً إلى البرهين المنطقية

(١) الحيوان ، ج ٢ ، صفحة ٤٥

(٢) الحيوان ، ج ٦ ، صفحة ٦



## المتصوفون والرهّاد

ما كان المتصوفون والرهّاد يبقوا هوى في نفوس أهل السنة لأهم كانوا في نظرهم مفكرين أحراراً يميلون إمّا إلى التحرير الروحي ، وإمّا إلى توسيع آفاقهم الدنية وفي كلا الحالتين كانوا يتعدون برهدهم شيئاً فشيئاً عن الصراط الإسلامي المستقيم تحت تأثير اليهود والنصارى وأتباع مآبي

وفي سبيل صدّ نوار الصوفية الدافق بسست السلطات الدنية الرديفة إلى هذا المذهب وعاقبت أتباعه على غير هوادة .

في حملته على هذه الفئة « لشدة » كان المحاط يسبب إليها الخدع الديني لتحفيرها ، ولا يدحر هراً ، ولا لدعة ، للتعريض بطرقها ومعتقداتها الخاصة لقد قسمها طقات ، فانهد عند المتكلمين المشككين يقوم على سبه الشك إلى العير وعند الخوارج هو إظهار هول الخطيئة دون أن يروا ما يقوم به من اضطهاد أم بين الرهّاد أنفسهم فالكسالى منهم يعطون بالانصراف عن المعام يسما هم يتسولون بعحر<sup>(١)</sup> .

وشر ما كان يحشاه أبو عثمان هو أن تنقل إلى الإسلام ، عن طريق المتصوفين والرهّاد ، بعض أسائيراب المسيحية و الدنوية فمس صلابته ، لا سيما وأن السنك الذي ألمح إليه غير مرة كان حداثاً في الشيوع باستمرار .

## المتكلمون

كان من أثر علم المنطق الذي راح يفصل الرحمة عن الفلسفة اليونانية وأرسطو بوع خاص أن الفئة المقتعة من المسلمين راحت تفكر في قصاياها الدنية على صوء حسد لقد رودهم منطق بحجج مُرعرعة ووسائل تفتش فعلة تضاءل أمامها الأساليب الدائنية ، فشأ عن هذه الحاجة الدنية علم الكلام أو من التعيل الاسنوبي في حلقة أسرار الدين وادهر اردهراً سريعاً

(١) السيو ، ج ١ ، صفحة 28

كثيراً ما انعقدت حلقات المثقفين حول المواضيع الدينية أو الفلسفية لمناقشة آراء مختلف لشيخ، فكر شار علم لكلام في اللاهوت، شأن الرأي في انقانون، أي التوجيه إلى لوثوق بالتعليق الفردي انسيم مع الإيكون بالوحي وأحاديث النبوة

أعتقد المتكلمون أن الإله لا يمكن أن يأتي عملاً تناقض العقل وبوحي هذه الاعتقاد كانوا يظرون إلى بعض الشؤون الدينية ومن أبرر أولئك المتكلمين كان المعترلة.

لش حمل الخاطئ على المفسرين المشعورين الذين كن همتهم الخداع لأجل التكسب، فيه نظر إلى المتكلمين الخققين نظرة كاد وإعجاب، كان يعر عبه أن يقوموا بأي عمل يحط من شأنهم، لذا كان صدماً في نقد من أساء التصرف منهم حرصاً على سمعتهم التي صر أن يرقى إليها أي شك

كان مثلاً يأتي أن يصيغ هؤلاء، وقهم انمين في مناقشات عقيدة كاساطره المحددة التي دارت بين أسير من رؤوس المكلمين: أسطام ومعيد حول مرايا الديك والكس، فحمل على انرحلين معاً آخداً عندهم مهنات التي صرقتهما من مرحتهما في الدوع عن الإسلام وتوير أهوا الشعب وبعد أن أفرع جمعته في نقدهما أعس أنه إذا كان يضرب إلى هذه اساطره كصرب من اسليه، لأن التسلية إن جرت بالأحداث فهي لا تخور للصحيح من الناس<sup>1</sup>

والتكلم الذي لم يسكن ثقافته ما كان ليختلف، بنظر الخاطئ، عن المفسر المرتق، لأنه يوجه الناس نحو الخطأ، والتكلم الخقيقي هو من جمع إلى النقطة الدينية العميقة ثقافة فسيقية أعمق<sup>(2)</sup>

(1) الحيوان، ج 1، صفحة 200

(2) الحيوان، ج 2، صفحة 134

## العامّة الجاهلة

بقدر ما كنت نير لمحيط حل المستثمرين بقدر دأك كنت نثيره جهاله  
العامّة التي كنت تسلم لحيائهم ولا ترعوي رعم صح لصحيح فلدا كان  
لا يصح عيها سنده محاولاً بوجيها نحو الشفوه الصحيحه واسطو ولما فشل  
جهده الكبير تحرير هذه الفئة الضالّة من معتقداتها الصبائية، ولما حاب كل أمل  
بإصلاحها، رأى من انعت السعي إلى نفويم عوحاها لأنها أعجز من أن يفهم  
وتفكر وتمثل الحقيقة<sup>(1)</sup> فهي سقاد طوعاً إلى تحيلات الكدبة والمكدي فتقبها  
على علانها ولا تخاور حتى أن بشك في بعصب، سكاتها سمر مرر أكيد.

لقد اعبر أبو عثمان هولاء جهنة كارثة عني المحنّع فاشفق على الحكام  
مبهم، لأنه ليس على الارض مهمة أعسر من تدبير شؤونهم<sup>(2)</sup> أمّا البدو فكان  
يرى في معصمهم لرأي عيه فيعد هم لأهم يعيشون بين انهناء ولا يرون أو  
يعرفون عبره<sup>(3)</sup>

\* \* \*

هكذا رأيا المحاط يسعر ص بريشه حن صقت مجتمع عصره والطبع  
كريكاتورى الذي علب على بعض صورده لا يحذف كثيراً من قيمتها، لأن  
شيئاً من المص المتأصل في صميمه يظهر حتى في أبعد شخصنة العاطفة فيحميه  
على العودة إلى موضوعه من حديد مدفوعاً برغبة الأصاف قدر المستطاع  
وهذا ما يبرر في كثير من الأحيان دفاعه عن امر ثم عن صده وما كان اس  
قصة ليحمر للمحاط هذا التناقص

(1) البحلا

(2) الحيوان، ج 2، صفحة 94

(3) الحيوان، ج 2، صفحة 137

## حول بعض وجوه المجتمع

رأيت أن الخاطئ لم يبرح النقد الاجتماعي فقط، بل أفسح لمشاهدة الموضوعية المحررة محالاً كبيراً أيضاً. فالمراقب البارع، الذي أخرج عن معاصريه بوحدة صحة تكاد تكون شائعة، لم يعم عن رسم الإطار «والخلفية» بها، فبدأ هو بصور تصويراً دقيقاً أهم وجوه الحياة الاجتماعية كما تبين له

من أبرز ما لفته من مظاهر تلك «الخلفية» سطره الحرفات والأساطير الشعبية واختلاط الشعوب وازدهار الحركة الأدبية. وسحصى كلا من هذه لقاط المتفرقة، التي لا صلة بينها، بمقطع مستقل

### الخرافات والأساطير

في كل مجتمع بدائي تنوحه أحكام الدس على شؤونهم بوحى شعور لا بوحى التعليل المنطقي، فتنتشر الحرفات والأساطير، وهام الخيال وبأصل تأسلاً يجعلها جزءاً من التراث المشترك وحسباً أن يشير ههنا إلى الأثر الذي كان لميثولوجيات ليوانية والمصرية والصينية والعمانية على الشعوب، خلال حقبات طويلة من التاريخ، رغم حدها بأعرق الحضارات، لعمري مدى هذا التأصل.

وما كان لحظ المحرر المشكك بساهل بصدد هذه الحرفات المؤرثة، ولا بأصولها الساذجة بسحفة حولها، كان يحصع كل شيء، لسلطان العقل، ولا يسلم بصحة شيء ما لم يثبت له بشك لا يقبل الجدل وإن احتاج إلى البرهان الحسي عمداً إلى الاحتبار المباشر أو حتى إلى عقق عمداً إلى المقارنة والتمحيص،

فشأ عن هذه الحاجة منه إلى الفعل والأسفار ومحالطة الناس على اختلاف  
أجاسهم ومشاربهم

وفي سبل تبديد الأوهام وبرد الحرافات لطفاً لهذا لاقى إلى السحرة أو إلى  
التحليل ساعياً إلى تعويد معاصريه على اعتماد طرق جديدة في التفكير يُسيرهم  
في طريق التقدم لعلمي وخصري ومن أهم الحرافات التي عني بالقصد عنها  
حرافة الجحش.

## الحب

يرعشون أن الحب طائفة من لكائنات مؤلفة من بحر ولهب، أو لهيب به ود  
دحار، تستطيع أن تتحد هيآت شتى وهذه الكائنات، المحبوبة قبل الإنسان،  
هي أمتة منه بأساً، لأنها تترشح بحياة الأسس فتؤثر فيها تأثيراً سلباً لدرء أحصارها  
وتدرك انتقامها لا بد من الصلاصم والتعاويد وقد وجد مستعز لسداحة في  
هذا المجال مورداً للدرق لا يصب.

إذ يحمل الحاحط على حرافات الجحش يتدر بماثرهم التي تفوق لطيفة وإلى  
أهل بدمر المؤمنين بأن قلعته ساهها الجحش يقو، مهكماً إن حبر وسيلة تُريحهم  
من التفكير والتعيل هي نسبة كل أمر عجيب إلى الجحش.

ومن طرائف ما يرويه عن الجحش، بلهفته السحرة، قوله أن بعض البدو كان  
لا يجرؤ في الليل على صيد النعمة أو لغزال لأن الجحش قد تحطى مثل هابن  
لهيبتين ويرغم غيرهم أن الجحش نقيم في بلاد وبار التي قصى الله على أهلها،  
ثم يُصيف بأن هذه البند أحصت البدن، ولكن لوين لمن يتوجه إليها عمداً أو  
خطأ، لأن الجحش تدرّ عليه ترواً قد نعميه أو يقسه وإن سُئوا عن موقع هذه البلاد  
أجابوا من توجه إليها أصابه ما أصاب أنصار موسى في التيه<sup>(١)</sup>

هذه الأرواح سعوة نهية، على رعمهم، لتجده الإنسان إن ترك العالم

وعاش في انهر واعتسل مثلها بالماء الصافي ، وروى به ان نام بين دبين ، فيه قتلاً  
يقتل<sup>(١)</sup> .

ولطائفة اخرى هذه حليقة اقل شأن تعرف بالحن ما صرّ الحافظ عليها بهرته  
ولا بقذعه

عن الحسن وسداحه العامة كتب أبو عثمان :

«ويقول الناس فلان محدوم ، يذهبون إلى أنه إرا عزم على الشياطين والأرواح  
والعمار أحابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له  
صديق بليس ، ومنهم كربش الهندي ، وصانح الماييري ، وقد كان عبيد يقول  
إن العامر حربص عسى إحابة العريكة ، ولكن لذب إدا لم تصح أن يكون له هيكلأ  
لم يستطع دخونه ، والحينة في ذلك أن يسحر بالناس لذكر ، ويراعى سبر المشري ،  
ويغتسل بالماء ، اقتراح ، ويدغ الجماع وأكل الرهومات ، ويوحش في الصافي ،  
ويكثر دخول خرباب ، حتى يرق ويبظف ويصفو ويصبر فيه مشبه من حسن ،  
هنا عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعود مثلها ، فإنه ليس ممن يكون بهه هيكلأ  
لها ، ومتى عاد حط ، وربما حن ، وربما مات ، قال فلان كنت ممن يصلح أن يكون  
لهم هيكلأ لكنت فوق عبد الله بن هلال ، قل الأعراب وربما ركب جمع كثير ،  
ورأيا حيام وقبأ وابأ ثم فقد بهم من ساعت ، ولعوام تروي أن بن مسعود ،  
رصى الله عنه ، رأى رجلاً من الرط ، فقرب هؤلاء أشبه من رأيت بالحن ليلة  
الحن ، قال : وقد روي عنه خلاف ذلك ، وتأولوا قوله تعالى ﴿ روايه كتاب رجال  
من الأنس يعودون بر حال من الحن فردهم رهقاً ﴾ ، ولم يهلك الناس كلنوبل ،  
ومما يدل على ما قلنا قول أبي الحزم حيث يقول :

— بحيث تستر مع الحن العول —

«فأخرج الحسن من العول مدي سب به من الحن ، وهكذا عادتهم أن يجرحوا  
الشيء من الحمرة بعد أن دخل ذلك الشيء في الحمرة فيظهر لأمر خاص ، وفي

( ١ ) الحيوان ، ج ٤ ، صفحة ١٨٥ ، ح ٣ ، صفحة ٧٥



مُزراً لم يهبه أحد منهم ورد، راد لله عز وجل أن يسيء في أحسن شيء من الحيوان. هياً بذلك سباً كما أنه أرد أن يقصر عمره ويحيى يومه هباً به سباً، فتعالى الله علواً كبيراً<sup>(1)</sup>.

من الحرفات التي شاعت عهداً ولا يزال بعضها شائعةً لأول يوم وآخر يوم من لشهور القمرية أثر على اندماغ والدم والحاصلات لمرعيه، وأن الخنافس تحلب الررق فلا يسعي القصد، عيها، وأد كبر الأدبين دليل على طول الحياة<sup>(2)</sup>. وأن الشيطان لا يدحى يساً فيه دبت أبيض عرفه أحمر<sup>(3)</sup>، وأن من يأكل من لحم النهر لا يفعل فيه لسحر، وأن الكمأة تنقى في بطن الأرض حتى تمطر السماء فتتحول إد دة ثعاً<sup>(4)</sup>، وأن ثمة حبة تعرف باندساس نوب ولا تبيض، وأن السمرة لا تولد حرراً إلا مطوقاً دفعي<sup>(5)</sup>، وأن الحبة تعش أكثر من السر بل هي لا تموت أبداً بالرغم منها لأن لشيطان يسكها أو لم يحترق بلبس آدم متسلاً إحدى لأفاعي؟ وأن في قعر ببي عسر حية تصطاد الطيور يشكن عريب. عندما تشتد الهاجرة تدحى دسها في الأرض وترفعها كالعمود فتحد عليه الطيور التعب فتبتلعها دون أن تشي، وهذا يشق الحاسط، من قبل الصدر طبعاً، على جهاله دبت الصيراء ي لا يحير بقصرته بين الحبار والحسب بقصر ما يعجب بصير الحية على الحرارة ودهائها في حجاج العير

ولا يعصي صاحبا عن العفاء والعزل ويحوج وماحوج فحصر كل منها بلدعة ويمضي كان قصده أن يثير سحرية الدس من هذه سحافات أملاً منه بأنهم يرعوب، لا سيما وأنها قد تؤثر في معتقدتهم الدينية فهذه صلابتها ولكم دفع بقمة في حمته عير مفسر بن مسعودين اشري الجرارات عير الآهين

(1) الحيوان، ج 3، صفحة 106

(2) الحيوان، ج 6، صفحة 07.

(3) الخيزران، ج 2، صفحة 259

(4) الحيوان، ج 4، صفحة 22

(5) خيبر، ج 4، صفحة 54



للعواقب السيئة التي تحدثها في نفوس العامة الأبرياء

ودفاع عن المفسرين وعن الأحاديث المزعومة التي حاول الخاطئ عظيمها،  
أبى أن يقتية يرد عليه بشدة راعماً أنه يستهزئ من الحديث استهزاء لا يحق  
على أهل العلم كذكره «كند، الخوت»<sup>(1)</sup> و«قرن الشيطان»<sup>(2)</sup> و«الحجر الأسود»<sup>(3)</sup>  
و«دوس الهدهد أمه في رأسه»<sup>(4)</sup>

وذهاباً من هذه الأمثلة يحاول ابن قتيبة أن يبال من استقامة الخاطئ في توجيهه  
الديني ويسب إليه سوء البية والتعرض. إلا أن ابن قتيبة في ذكره ما ذكر قد دس  
بعضه بضمه، لأن الأحاديث المزعومة التي انتقلت به عثمان باررة السجامة،  
يحدد ذاتها، ولا تستند إلى الحقيقة التاريخية بصفة، فهي تقول واحتلاق وروايات  
هوى

ولا أحال الخاطئ قام بهذا النقد إلا سقد لأحاديث انصحيحه التي حشي  
أن تصح في عمرة الخرافات واستاداً إلى منطق يد كل حديث مشوه وراح  
بفسر المعنى المحاري في الأحاديث الثابتة وبعض النصوص المفهومة<sup>(5)</sup>، فهو في  
تفسير الآية القائنة ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ﴾، طلعها كأنه رؤوس  
الشياطين يقول.

«وليس أ. لس رأوا شيطاناً قط على صورة، ولكن لما كان الله قد جعل  
في صدى جميع الأسم استقح جميع صور للشياطين، واستسمحه وكراهته،

(1) يرى أن كند الخوت هو أول صدام يقدم لأهل الحجة لأن الخوت يحمل الثور حامل لأرض  
(2) يرى بعضهم أن الشمس تشرق من بين قري شيطان ويرورن حديثاً يهوى عن نصالة عند الشروق  
أيضاً لهذا المزمع

(3) م. و. عن ابن العباس بن عبد المطلب أنه قال: الحجر الأسود من الجنة وأنه كان أشد بياضاً من  
الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك، فقال الجحش متدبراً إن كان المشركون قد سودوه فما  
كان يجب على مسلمين حين أسلموا أن يبصروه

(4) يرى عموم أن الهدهد بن الريح لأنه دوس أمه في رأسه ومن القعدة في رأسه إلا ثوابه على بزه

(5) الحيوان، ج 6، صفحة 96، و صفحة 47، روح، صفحة 166

وأخرى على السنة جميعهم صرب المثل في ذلك، رجع بلايخاش واتفير، وبلايخافة والتفريع إلى ما قد جعله الله في صراع الأويين والآخريين، وعند جميع الأمم، عني خلاف طبائع جميع الأمم، وهذا التأويل أشبه من قول من رعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات يست باليعس<sup>(١)</sup>

في تأويله وفي تفسيره، كما في بقده السحافات المسوية إلى الأحاديث، حرر الجاحظ الإسلام من عبث الأساطير والخرافات التي يلحقها السدح من الناس بكل دين فكان فصل الجاحظة من هذا القفل حريلاً.

### الشعوب المختلفة

كان العراق مركز الإمبراطورية الإسلامية عهد العباسيين ومحور النشاط الفكري والتجاري في العالم لذا اجتذب إليه شعوباً مختلفة الأصل، منها ما ألف مجتمعات شبه مملعة عني دانه، ومنها ما امتزج بمجموعه الشعب وفي كلا الحالتين بقيت لهذه الشعوب خصائص وعادات ما حفيت عن نظر الجاحظ الفصولي فحال فيها على هواءه، وقد توقف خصوصاً عند الموالي من فرس وترك ورواح ويونان وأحاش وهود وبوبيين.

### الأتراك

حشي الخلفاء العباسيون نحو انعود الفارسي المصرد إد راوا فيه حضراً عني استقرار ولايهم، فركوا إلى الأتراك، وقد وحدوهم أشد إحلاصاً لهم، وكأوا يجمعون هؤلاء عادة من على أسواق بغداد حيث قدمت بهم الحروب من أواسط آسية.

فهي ولاية المأمون كان نهر من العبيد لأتراك<sup>(٢)</sup> في حمزة القدة واردة عددهم وتوطد سيطرتهم في عهد الخليفة المعتصم لدي عهد إليهم عمراكر حساسة

(١) الحيون، ج 4، صفحة 13

(٢) أبرهم اعشور

في الجيش وفي الإدارة.

وقد أظهر الأتراك من الولاء والابصاط ما حسبهم إلى نفوس الولاة إلا أنهم ما أدركوا أهميتهم حتى جمع بهم انطموح وانتهى بهم الأمر إلى التحكم بشؤون السلطة ومرص رادتهم في تعيين الخلفاء ويذكر المؤرخون أن لقائدين التركيين واصف وإيتاح قد بعتا المتوكل حبيفة بعد موت أخيه الواثق.

أعجب الخاطب بدوره بهذا الشعب الحريء المنصط، أول الأمر، فوضع رسالة عنه عنوانها «مناقب لترك» أظري فيها صفاتهم العسكرية محدولاً أن يمهّد لاعبرهم كركيرة ثالثة للحلافة مع العرب والخراسانيين وكانت حجته لأولى أن الأتراك يفرصون الاحترام بحوهم ووفائهم بقدر ما يفرصه الفرس بموهمتهم الإدارية وثقافتهم ودوقهم الأدبي والفني، وقد ذهب في مدحه الأتراك إلى أبعد من ذلك ففصلهم على الخوارج والخراسانيين إذ قال: للبحارجي عيب في مستدير الحرب وللمحراسبي عيب في مستقبل الحرب. فعيب الخراسانية أن لها حولة عند أول الالتقاء ثم تنهرم. أما الخوارج فإن ولوا فلا كركهم بعد فرب يسما التركي هو الراعي والسائس والرئيس والمحاس ولأن «يغال الكفاف عصاً أحب إليه من أن يغال الملك عمواً».

## الربوح

كان يفهم الخاطب بالربوح الحسن لأسود عمومياً (بما فيه اليهود) من عدا سكان القسم الشمالي، أو الشاطئ الشرقي، من المناطق الإفريقية التي يقطعها ربح اعشقوا الإسلام

كانت انقواوس التي تردد إلى هذه السدان وإلى الشرق الأقصى تعرد بعدد كبير من العبيد في أواخر القرن الهجري الأول وكان هؤلاء، على حد قول الطبري، يستخدمون في الحفر أو في خدمة العائلات الميسورة

أثار وضع هؤلاء الناس شفقة أبي عثمان، (لكأنه ذكر صبه الرحي) فدفع

عنه بدون تحفظ وفصّته على البصر في رسالته «فجر السودان على انصار». وقال في محل الرد على حصومهم أن الله ما حلفهم سوداً لتحقيرهم. فما لو بهم إلا نتيحة حتميه لمأح بلادهم الحارة. وأي عيب في ذلك بعد، أليست حذقة الإنسان أعز ما لديه مع أنها سوداء!..

غير أن للجاحظ رأياً آخر في أهل ربحار الذين كانوا يقيمون مع الرط في البطائح بين النصرة وواسط، لأنهم كانوا يبدون له أحمق البشر وأقدهم بصيرة واهتماماً بعندهم<sup>(١)</sup>، ولكنه كان يصدد سائهم أشد ساهلاً لأنهن جميلات النور، حسات الصوت، مقصدهن ودرعات في الطيح<sup>(٢)</sup>

### الشعوب شتى

وعرف المخط سائر الشعوب في بغداد فأورد عنها تفاصيل مبيدة للتاريخ ولد بفتته فئة الخصباء الذين كانوا يقدون من الحنسة وبلاد النوبة أو السودان فيعملون كحرّاس للحريم أو كخدم. وهو إذ يصف حصائصهم وطريفة حياتهم وعملهم برعاتهم لا يتوانى عن الإسفاف على أفعالهم أمام النساء.

ويقول المخط عن البيرطيين أنهم أبجل شعوب المعمور فيس في لغتهم كلمة واحدة تعتر عن الكرم، وعن الألباط أن لهم وحوهاً تشبه وحوه القرو<sup>(٣)</sup>

حتى الأطعمة المحتفمة التي كانت تؤثرها هذه الشعوب تحدث المخط عنها فروى أن البيرطيين يأكلون المحشي والمعالى، والفرس يميلون إلى الطعام السارد الحمو، أما البدو فيحبون الدس والحراد والكمأة والتمور<sup>(٤)</sup>.

(١) البهلاء

(٢) اليهود، ج ١، صفحة 106

(٣) اليهود، صفحة 73

(٤) اليهود، ج 3، صفحة 434

## أثر البيئة

أدى لتحقيق العدمي بالملاحظ إلى اعسارات قيمة حول أثر البيئة في الشعوب<sup>(١)</sup>. وفي هذا يستند إلى قول بعضهم أنه إذا فسد الهواء في ناحية من النواحي فسد الماء وفسدت لثمة فعمل ذلك في طباع السكان على الأيام، «كما عمل ذلك في طباع لريح، وطباع بلاد انصقالية، وطباع بلاد يأحوج ومأحوج، وقد رأيت العرب وكانوا أعرباً حين برلوا حراساً، اسلحوا من جميع تلك المعاني، ونرى طباع بلاد الترك كيف تطيع الليل والدواب وجميع ما شبههم، من سبع وبهيمة، على طبائعهم، ونرى حراء القبول والرياحين ودبدهن حصر، وتراها في غير الحصرة على غير ذلك، ونرى القمل في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاء وفي لون الحمل الأوراق ورقاء، فإذا كانت في رأس الحصيب بالحمرة ترها حمراء، فإن حصل حصه صار فيها شكلة من بيض وحمرة، وقد يرى حرة بني سيم، وما انتمت عنه من إسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة، فتراه كلها سوداء، وقد حثرت من لا يحصى من الناس أنهم قد دركوا رحالاً من ببط يسار، ولهم أدب إلا نكر كأدب التماسيح ولأسد والبقر والحيل، وإلا كأدب السلاحف والخردان، فقد كان لهم عجوب طوال كالأدب، وربما ربا الملاح اسطفي في بعض الجعفرات، على وجه شبه القرد، وربما رأينا الرجل من المغرب، فلا نجد فيه وبين المسح إلا القيس، وقد يجور أب يصادف ذلك الهواء الفاسد، والماء الحث، وثرية الردية، ناساً في صفة هؤلاء العربيتين والأساط، ويكوبون حثلاً، فلا يرتحلون صبة تمسكهم وأوصدهم ولا يتقنون، فإذا طال دبت عيهم راد في تلك الشعور، وفي تلك الأدب، وفي تلك الألوان اشقر، وفي تلك الصور اساسة للقرد».

هذه الاعتبارات عيها أحد بها عدم الاحتما ع الحديث استناداً لطريات

(١) الحيوان، ج 4، صفحة 24

هيمويت تن . لكن أحده بها لم يكن مطفءاً ، كما شاءه الخاط و شاءه تين من بعده ، فأبو عثمان يقرر ذهباً من اعتبار ته هذه أن البيئة تكثف الناس ، إن ساعدتها العناية الإلهية ، وتصور شخصياتهم وخصائصهم وعاداتهم<sup>(1)</sup> وخصي بالنالي إلى تصنيف الشعوب فدت فدت بالنسبة إلى بيئاتهم وبعض عاداتهم وخصائصهم انهمية أو القمية . فإذ العرب قد عمدو إلى الشعر لحفظ ذكرياتهم ومآثرهم فيما فضل الفرس القلاع والحصون والأصرحة وهد انصيون بيرعون في الحرف ، واليونان في الفلسفة والآداب ، والفرس الساسانيون في الحكم ، والآراك في الحرب . فلذا لم يشهر اليونان في الحارة ولا في الحرف ولا في الملاحة ، فيما اشتهر الصيون بالصياغة والنحت على الخشب والحياكة والسبح

أما العرب فليسوا تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ، ولا مرر عيين ، بل أصحاب فراسة وقد لمعوا في لآداب ولغة والمنطق والسحيم .

إن هذه الآراء ، على بدايتها ، تم عن رعه في البحث الاجتماعي عند العرب منذ ذلك العهد أو لا يسسح من هذا أن الخاط مهذ انسيل لابن خلدون ؟

\* \* \*

### المرأة واحية المدنية

لم يكن لحياء العائلة دور بارر عند العرب في القرون الهجري الثاني ومرت ذلك إلى طريقة حياتهم بقدر ما مرده إلى وضع المرأة يوجه عام كانت الطبقات الأرستقراطية والبرجوازية تصرف أوقات الفراغ بطلب الملذات فيما كانت الطبقة الفقيرة تكاد لا تعرف لفراغ معنى أما الأتقياء فكان لفرانص دينهم ما يشغلهم عن الاهتمام بأي شي ، آخر عند الانتهاء من أعمالهم

وكن الخاط فيل الإيمان بمطلق المرأة لده يسب إليها وإلى أشباهها من

(1) الحيوان ، ج4 ، صفحة 70 71 و ج5 ، صفحة 35-36 و ج5 ، صفحة 326

امر حال كل الحكايات المهمة ، لكنه مع هذا كان يراها مساوية للرجل فلا يصح بالدفاع عنها ناسياً الضعف إلى من لا يستطيع أن يثبت حقوق الآباء إلا بإسكار حقوق الامهات ودعماً لوجهة نظره وصح رسالة «في الناس والرجال» ودرس خصائص كل جنس والمجالات التي يبرز فيها الواحد الآخر

وإذا يعترف أبو عثمان بالتعاون الاجتماعي البارز بين وصفي الرجل والمرأة في عصره ، يعترف أيضاً بتحس ملوس في وصع المرأة باللبسة ما كانت عليه وذلك بمفصل الإسلام .

ويهي به درس واقع المرأة في عصره إلى استهجان حجب النساء وإلى التكرار بتشقيف المرأة ورفع مستواها وتحريرها من استداد الرجل

أما الحبة المرببة فكانت مردهرة باللبسة إلى المخطوطين نظراً لتدفق الخير على أسواق بغداد والبصرة . فهي رسالة «النصر في سجادة» مسبوقة إلى الخياط عرص واقف لحرارة التحارية في ذلك العهد وطرق البديع التي كان يعتمد عليها أبناء العمة في حياتهم .

وبمفصل احتلاط العرب بالفرس تطوّر الطبع اندي كان بسيطاً بدائياً عند العرب إلى فن له مقوماته وأساليبه . فكانت تؤدب المآدب وتو لم الولائم في الحفلات الخاصة والعامة على أسمى ما عرفه الأكاسرة والمقرّبون منهم .

ويروي لنا أبو عثمان بالتفصيل المآكل والمشارب وخصائص عرق الطعام حتى لحال أبا يعيش في حوزها المآتاع .

ويذكر أيضاً كل صروب الطعام المألوفة في ذلك العصر وأنواع الدعوات إليه والمناسبات التي تتيحها ومنها العرس ، أي وليمة القرائ ، والحرس وهو الصدم الذي يتّحد صبيحة الولادة للرجال والنساء ، ولأعذار وهو طعام الخنا والكيرة ، أي طعام النساء . كان الرجل يطعم من يسي له ، وإذا فرغ من يائه تبرّك بإطعام أصحابه ودعائهم<sup>١</sup> ، ثم يذكر القبيعة وهي ما ينحر من الإبل ، والعقيقة

(١) البحلاء ، صفحة 248 .

وهي دعوة على لحم الكباش .

والدعاء إلى هذه الأصناف من الطعام كان من المدموم ومنه الممدوح . وفي هذا يقول الجاحظ<sup>(١)</sup> : والمدموم النقرى والممدوح الجملي . وذلك إن صاحب المادية وولي الدعوة إذا جاء رسوله ، والقوم في أحويتهم وأنديتهم ، فقال حيوا إلى طعام فلان ، فجعلهم حفصة واحدة ، وهي الحفالة ، فذلك هو المحمود وإذا النقر فقال : تم أنت يا فلان ، وقم أنت يا فلان ، فدعا بعضاً وبرك بعضاً ، فقد النقر .

أما الطعام المدموم فكان على صريين أحدهما طعام المجوع والحصمات والضرائك والساريت<sup>(٢)</sup> واللحم والحساء والفقراء والضعفاء من ذلك الفئ<sup>(٣)</sup> والدعاع والهيد ، القرمة والقرمة والعسوم ومقع البرم ، المقصيد والقد<sup>(٤)</sup> والحيت أما القط فإنه وإن كان شرباً كريهاً فليس يدخل في هذا الباب ، وكذلك الممدوح أما القط فإنه عصارة الفرس إذا أصابهم العطش في الماور ، وأما الممدوح فإنهم إذا سبغ العطش منهم اجتهدوا بحرقوا لابس ونبهوا ألسنها بالحما كهيلاً يصعب من دماها شيء فإذا برد الدم صربوه بأيديهم ، وحدثوه بعيد بعداً حتى يقطع ، فيعزل ماؤه من نفسه ، كما يحلص برده بالحصى ، وحين بالأنفة ، فيصافون ذلك الماء ويتبعون به ، حتى يحرحوه من أنفة

ويعصي الجاحظ في شرح بحلف الطعام من الهريسة والقرسية ، إلى الثريدة ، إلى المحنية إلى المدودح ، ويسر حصائص كل منها وفوائده

وبعد الطعام وصروبه يعدد أبو عثمان الأدوات المرلية ومصادرها وكيفيات

(١) البخلاء ، صفحة 248

(٢) المجوع الواحد جماعة الحطمت الواحد حطمه ، السه تشديده الضرائك الواحد طربلت الفقير اليأس الساريت . الواحد صبروت المخاض الممل

(٣) لميت يختبر حبه ويؤكد في الخلد

(٤) الدعاع حه سوداء ياكبه فقرء الدية الهيد الحظال القرمة محاته الفروع والأظلاف القرمة : البقيق المحتوط بالشر البرم . ثمر شجر العصاء



استعمالها وإذا قروا الهائم تستخدم كمشاحب ليوم . وإذا الإمعاء تصع أو تدرأ ،  
والعظام تذوب لتستعمل شحماً لمسارح .

ولا يعمل الخياط عن ذكر أدوات التريين عند النساء والرجال<sup>(1)</sup> ، ولا وسائل  
الترفيه ومنها لرد وتربية الحمام ويشير إلى العادات المنوعة على الموائد ، وإلى  
الألبسة التي كانت ترتديها طبقات الشعب المختلفة ، وإلى فرش القصور والدور ،  
وإلى البياض الاجتماعية وما يليها من عرف وتقليد<sup>(2)</sup>

### الحركة الأدبية

ليس من السهل الصريق بين الحياة الأدبية والحياة السياسية الدسية عندما يكون  
تمسير الكتب المقدسة الدافع الأول إلى التقبيل ، للعوى والبحث في الشعر القديم ،  
وعندما يستوحى الشعراء مظاهر لششاط السياسي في مديحهم وفجرهم وحتى  
في عزلهم أحياناً . إلا أنه كانت تقوم مناظرات لعوية وأسواق أدبية مستقنة في  
المربد مثلاً أو في لبلاط . وكثيراً ما اشترك الخياط فيها . وكان يأخذ على المثقفين  
في عصره قبه نصراهم إلى الفكر رعم بهيو الخو الحر الملائم لآردهاره ، كما  
يأخذ عندهم نصراهم إلى شؤون البعة بد حشواً ذمهم قواعد وحوارات صرفة  
وبحوبة حتى لم جد ثمة محل لعبادة بالقصدا مفيدة<sup>(3)</sup> . وقد وجه نقداً لادعاً في  
هد اناب إلى معنمه الأحسن فعاب عليه عموصه المقصود<sup>(4)</sup>

إلا أن أبا عثم ن أعصى عن نقد الانصاف إلى جمع اشعر القديم لأن ضرورة  
الرد على لشعوبية اقتضت هد العمل ولم يتوان هو نفسه عن القيام بهذه المهمة  
في كتابه «البيان والتبيين» وقد ذكر في هد الكتب كما في غيره كـ «الاحلااء»

(1) الحيوانات ، ج 1 ، صفحة 37 و 97

(2) البيان ، ج 3 ، صفحة 63 و 66

(3) على هامش الكامل للمبرد ، ج 1 ، صفحة 26-27 .

(4) الحيوانات ، ج 1 ، صفحة 45

و«الحيوان» شعرٌ رَوَّاهُ، عني دمة لأصمعي وكنم أظهر إشاره لشعر ساهبي  
على الشعر المعاصر<sup>(١)</sup>.

وأورد الخياط، في حديثه عن الأدب والأدباء في عهده، تفصيل مفيدة عن  
طريقة كلامهم، وقد بعضهم سُحر كلطام مثلاً<sup>(٢)</sup>، وبعضهم بحس الحويد  
وكن يرى في أبي عبيدة الخارحي، عني رعم اختلافهم لسياسي، انعام لأمثل  
الذي يسم بشؤون المعرفة كافة. أما بشر بن برد وبنان اللاحقي فما حزنهم بأي  
مديح، بن رأى فيهم الرندة المجسدة وأما بن نواس فلم يذكره بحر ولا بشر،  
وليس لدينا ما يفسر هذه الالامبالاه

وليسح شأه في كتب الخياط وقد كن رائجاً في ذلك العهد وكتب في  
تأليده أنه وسببة فعانة لحفظ المعرفة لأن موسيقى القوافي تساعد على الاستظهار  
وهكذا يرب الخياط في هذا العرض المحيطي الدقيق شريطاً حصياً بالصورة  
عن الحياة في عصره فلولاه لما تكملت الفكرة التاريخية عن ذلك المجتمع ولما  
توضع عدد كبير من دقائقه ودقائقه.

(١) الحيوان، ج ١، صفحة ٣٧

(٢) الحيوان، ج ١، صفحة ٣٦ والبيان، ج ١، صفحة ٣٧،

## قيمة شهادة الجاحظ على

### محتمم عصره

الآن وقد استعرضنا أهم الحقول التي تناولها الجاحظ بنفسه وتصويره، يرتسم أمام أذهاننا السؤال الأساسي ما عائدة اليوم من شهادة الجاحظ على مجتمع بعد نقص ألف عام عيناها؟ هل لها قيمة حقيقية في الحقول الأدبية والتاريخية والمدنية؟

### القيمة الأدبية

كثر عدد المؤرخين والكتاب العرب الذين درسوا ونقدوا المجتمع العربي في لعصر العباسي وبين هؤلاء من وفر معلومات أكثر مما وفر الجاحظ (مسعودي والأصمعي مثلاً)، إلا أن ما عثما بقي مع هذا، في نظر النقد، شاهد عصره الأول. فما هو السبب الأساسي؟<sup>(1)</sup>

بدو أن مرة الجاحظ الأولى هي إحياء موضوع وترسيخه في الأذهان فهو لا يسرد الوقائع سرداً مملاً حافاً، على عرار أكثر المؤرخين، بل يحب أوصافه بصفة حبة نجعلها تحكي لنا بوضوح وقد أبع وسائل شتى لبوع عاينها ستناولها تفصيلاً:

### وصف الأشخاص

ليست مدكة للملاحظة، على أهميتها، هي التي جعلت لنقد الجاحظ قيمته المبرجة، بقدر ما هي طريقة عرض أشخاصه وبعثهم أحياء، لقد تعد إلى نفسية

(1) البحلاء، صفحة 96

موصوفه ودرس الصلة بينها وبين الحركات الخارجية والملاصق والامعالات من  
كسمة عصبية ، إلى إشارة خاطئة ، إلى بصرة عابرة فهو إذ يصف بـ «الحين الجشع»  
بحالنا شاهده أمام بهمه وتكالبه : «كأن إذا أكل ذهب عفيه ، وحجست عيه ،  
وسكر وسدر وابهر ، وترتد وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر فمما رأيت  
ما يعبريه ، وما يعري الطعام منه ، صرت لا أدل له إلا وبحر يأكل التمر والخور  
والباقي . ولم يفحأي قط وأن آكل تمرأ إلا استقه سقاء وحساه حسوا ، وردابه  
ردوا ، ولا وحده كبيراً إلا تناول القطعة كحمة الثور ، ثم بأحد بحصيتها ،  
ويقتها من الأرض ، ثم لا يرل بهشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وحفصاً ، حتى يأنى  
عيبها جميعاً ثم لا يقع عصبه إلا على الأصناف والاثلاث ولم يفصل ثمرة قط  
من ثمرة وكان صاحب حمل ولم يكن يرصى بالتفريق . ولا رمى بواءه قط  
ولا برع فمعه ، ولا نهى عنه قشراً ، ولا فتشه محانة السوس والدود ثم ما رأينه  
قط إلا وكأنه طائب ثار ، وشحشحن صاحب طائله وكأنه عشيق معتم ، أو  
جائع مقرور»<sup>(1)</sup>

إنه لا يدرس أشخاصه في المطلق ، بل في أوضاع معينة مفصلة يكشف عن  
أعمق قههم شكك بسع لقد عرف كيف يرفع القناع عن وجوههم ليطهرهم عن  
حقيقته ويحملنا على مشاطرة رأيه فيهم فتميل إلى بعضهم ونكره غيرهم

واللاحظ ، بعد ، ينظر إلى وجه واحد من وجوه أشخاصه . وهذا سر نفوقه  
فالحيل عنده ليس بحيلاً فقط ، لكن السجل هو العامل الرئيسي الذي يوجه حياته  
حتى ليصح تحسيدا لسجل وتمحي فيه سائر الخصائص .

أم إنشاؤه فهو سندس على متنه سندس ، بعيد عن التصنع ولعموص على  
وجه الإحسان<sup>(2)</sup> . واللاحظ ، من هذا لقييل ، أقل كتاب العرب اهتماماً بالترقيق  
اللفظي والسميق الباني قال بديع الزمان في وصف كلامه : «بعيد الإشارات ،

(1) البخلاء ، صفحة 96

(2) يوجد عليه بعض العموص أحياناً في استعمال سمائر العائب مبتسج لمصير على الفارسي

قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، مقدد لعربان الكلام يستعمله ، يعود من معاصره يهمله ، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ؟ أو لفظة غير مصبوعة ؟»

ك . دأبه أن يعبر بوضوح وغفوية بلغة مربة عبة بالفرديات والمرادفات وكان يعنى عناية خاصة باختيار اللفظة التي تستوفي التعبير عن المعنى المقصود ، فلا يشتكف عن استعمال لتعابير الواقعية واللهجات العامية وخصوصاً في سرد الحوار حرصاً منه على إبعاء صورته تامة عن موصوفاته في أحوائها المحتملة .

«ومتى سمعت ، حفظك الله ، بادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأب تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج الفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تنحس في إعرابها ، وأخرحها مخرج كلام المولدين واللدنيين ، خرجت من تنك الحكاية وعيدك فصل كبير ، وكذلك إذا سمعت بادرة من بوارد العوام ، ومُلحة من ملح الحشرة والعظام ، فإياك . وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخيرها بمطهر حسناً ، أو تحس لها من حيث مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتع بها ويخرجه من صورتها ، ومن اندي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها»<sup>(1)</sup>

أما حمته فهي على انعال وحيرة أيقنة . وهي قوبة الحث حتى عندما تكون ثقيلة التركيب

هذا الأسلوب انسليم جعل للحذو أتباعاً كثيرين طوَّروا لعربية من بعده وليتوها وحعلوها أشد ملاءمة للتعبير عن مقتضيات العصر .

وقد يكون - أهم ما يؤخذ على احاحط انتقاله من موصوع إلى موصوع حتى لصيغ القريء ويعيب عنه أساس البحث فهو مثلاً كان لا يتورع عن مناقشة فكرة فلسفية دقيقة رأساً بعد سرد بادره أو وصف حوار ، وكأنه في حديث لا عبة له وهو إلى هد فلما توحى الندرس الأسبوبي المستند لأي من المواضيع ، بل كان حسبه أن يعالج كل مسألة كيفما اتفق له

(1) البيان والتبيين ، ج 1 ، صفحة 81 .

## ضحك الجاحظ

كان أبو عثمان معطوراً على التهكم كان يحب السكينة للسكينة، يقولها حتى لو انقبت عليه. وكثيراً ما كان يقول أن في الحد إذا استمر إرهافاً للذهن وصرفاً عن الموضوع. والكذب أيضاً كان نوعها حتى ولو عدلت شتوتاً خطيرة، يجب أن لا تحبو من بهزل والتسمية نفعها عن القدرى وعوناً على حصر هتمامه.

«وان كما قد أملى لك بالحد، ربالاحتجاجات النصيحة والبروكة، لتكثر الحواطر، وتشهد العقول، فإن سسشتك ببعض البطالات، ويذكر العمل الطريفة، والاحتجاجات العربية، فرب شعر يلعب بفرط عبوة صاحبه من السرور والنصحك والاسطراف ما لا يلعبه حشد آخر الوادر، وجمع المعاني، وأنا استظرف أمرين استظرفاً شديداً. أحدهما اسماع حديث الأعراب، والأمر الآخر، احتجاج متارعين في الكلام، وهما لا يحسبان منه شيئاً، فربهما يثيران من عريب الطيب، بصحت كل ثكلان وإن تشدد، وكل عصيان وإن حرقه لهيب العصب، ولو إن ذلك لا يحل لك في باب اللهو والنصحك والسرور وسطالة والتشاعل ما يجوز في كل فن، وسدكر من هذا الشكل عدلاً، وبورد علبك من احتجاجات الأعياء حججاً، فإن كنت ممن يسعمل الملاة، وعجل إليه السامة، كان هذا الباب شيطاً لقلبك، وجماماً لقوتك، ولتبدى النظر في باب الخصم، وقد ذهب عنك الثكلان، وحدث النشاط، وإن كنت صاحب عزم وحد، وكنت ممرباً موقحاً، وكنت إنك تفكير وتغير، ودراسة كتب، وحلف ستي، وكنت ذلك عادة لك، لم يصرك مكانه من الكتاب، وبحظه إن ما هو أولى بك، وعنى أي قد عرمت، والله لموفق، في أوسع هذا الكتاب وأفضل أبو به سواد من صروب الشعر، وصروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل، فإني رأيت الأسماع من الأصوات المطرقة، والأعني الحسة، والأوتار الفصيحة، بإطلت ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحه التي إذا طلت أورثت العفة، وإذا كنت الأوائل قد سارت في صغار

الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير ما حال وكثر اصلح ، وما عاتبا من ذلك كله إلا أن تسفيلوا حيراً<sup>(1)</sup> .

وفي سبيل الدفاع عن هذا المبدأ في الصحت لتثويق ، يستعين الخاطب بالكتب المقدسة وبالطلب وبالعلماء ولعن تشاومه بالحياة جمع بصرف إلى الصحت والتبشير به رغبة في الدهول عن واقعه المرير .

## القيمة التاريخية

هل شهادة الخاطب على مجتمع غير القيمة الأدبية " هل لها قيمة تاريخية ما ؟

إذ كان التاريخ بعث الماضي بكامله ، أي تصويراً حياً ملوئاً كمالاً ، أقصى المستطع ، وموحياً على الأحص يُعيد إلى دهر الفارئ الرمن الماضي ، فلا شك ان لشهادة الخاطب شأنها لا سيما بالسنة إلى مؤرخي الإسلام . وقد أفسح به المشرق سواحبه<sup>(2)</sup> مكاناً بين مؤرخين مبرراً ذلك بقوله إن دقة ملاحظاته وحدة أوصافه تجعله شاهداً محرم الرأي على مجتمع عصره

والواقع إن الخاطب شاهد محترم الرأي حقاً إذا سئما بأن الاحترام يقوم على دعمي العزم والإخلاص وهما لا بد من التمييز بين قسمين من شحته . انقسم الموضوعي الذي يسرد فيه الوقائع التي شهد بها ، على ما هي ، وانقسم الذاتي الذي يعلب عليه النقد .

فالخاطب كشاهد لا تُعورُهُ انكفاء ولا الموضوعية ، فقد مكته أوصاعه الخاصة من أن يرى ويدون ويستخلص . وكان له من دوقه ، تسليم ما حثه الخطأ في غالب الأحيان

تساول أبو عثمان الأشياء التي رآها بأمر عيه والناس الذين عرفهم عن كتب .

(1) الحيوان ، ج3 ، صفحة 2

(2) مؤرخو الإسلام

وما أنه كان دقيق الملاحظة ، يعنى أهميه عني دهائن الأمور ، فقد استطاع أن يمد  
 بأنظاره الحادة من خلال كل وجه ، وكل حركة ، ليُشبع فضوله أولاً ثم يسجل  
 ملاحظاته من بعد . وهكذا جعلت أوصافه بالتفاصيل الدقيقة بالحياة والتعقيدات  
 الشخصية المفيدة ، والانطباعات القوية المدلول ، وهي تشكل سجلاً عياً مؤثراً  
 لحياة المجتمع العباسي فعلم بمصده كيف كانوا يعيشون في بغداد ولبصرة ، وما  
 كانت موصع أحاديثهم ، وما كانت مآكلهم ومشربهم وملابسهم ، وكيف  
 كانت أوصاع كل حرب وكل فرقة وكل شعب من الشعوب . ويريد في قيمة هذا  
 السجل الحي أنه عموماً يحبو من التعقيد ولطالما جهد الملاحظ أن يحسن ويعمق  
 معطيات الاحتمار الندية ليتوصل منها إلى اعتبارات عامة فهم علم الاجتماع  
 وكان له من حربة التصرف ما جعله يتحلى العرف والتقليد فيصنع أسساً نقدية  
 جديدة .

## الناقد

بين أثر المخطط ما أوحىه عوامل ذاتية حاول منها أن يدافع عن رأي خاص  
 وبما عن موقف سياسي معين أو أن يحمل عني حصوم وأفكار معدية . فهو في  
 مثل هذه الحالات لا يبين الوقائع كما هي ، بل بالنسبة إلى تأويله الخاص وعني  
 صوء برعائه ندية أو السياسية أو العاطفية . ثم يسب إلى الأمويين وعمّالهم كل  
 الخرائم والمجذّر والظلمات ؟ ومن نظر لآ إلى العيوب في الأقبيت الندية  
 التي وصفها ؟ .

ثم أية ثقة يمكن أن يوحىها كذب ، كالمخطط ، يعن اليوم ما باركه بالأمس  
 حرياً مع برواات طبعه أو مصالحه أم حصل تدره على الإمام عني و منحه نرة  
 بدات الحمية ؟ ألم يحدد فصل الموالي في رسالة يرهقهم دمًا في غيرها ؟

ب كل هذا يؤيد قول ابن قتيبة الذي سب إليه التقب في الرأي على الدوام .  
 ويبقى مع هذا أن هذه الوثائق لو دققها المؤرخ النوعي لاستخرج منها بعض  
 الشهاده طراً لندة الملاحظه العجيبه لني ما كانت لتفوه



وهالت عقدة أخرى لا بد من تداركها وهي أن الملاحظ كان سئم أحياناً بعض آراء وأفكار مالوفة بدون أن يناقشها ويعرض أسسها فيستخلص منها أحكاماً عامة لا تتركز دائماً إلى أسس وعقيد.

ولكن مهما يكن من أمر، فإن نقد الملاحظ الاجتماعي يوفر فائدة أكيدة لمؤرخ لأن صاحبها عرف كيف يعرض الخاصيات الرئيسية التي ميّزت عصره.

### القيمة المذهبية

لا بد لقارئ نثر الملاحظ أن يسأل نفسه: بوحى أي مذهب قام هذا المؤلف بنقده الاجتماعي؟

أن يكون صاحب «كتاب الحيوان» قد توحى أولاً إصلاح المجتمع، بذلك أمر يصعب إثباته. فقد سبق لنا أن رأينا العوامل المختلفة التي أوجت إليه نتاجه. ولكن رغم أنه لم يستهدف الإصلاح للإصلاح فإنه ما كان ليبراً من ثقافته المطلقة ومن نظرته إلى الكائن كمرشد واع فمن محمل دراسته للمجتمع التي ترنّدي تارة صانع الموضوعية وثارة طابع اسعد الداني، توصلح أفكار جماعة منفرقة لها أهميتها.

على هامش اللوحة التي رسمها الملاحظ لمجتمع عصره اتفق له أن تطرق لعدة معضلات في مجالات شتى: من الدين، إلى المجتمع، إلى السياسة، إلى الأخلاق، إلى العلم... وكثيراً ما انتهى إلى خلاصات حذيرة بالانتميم. وما كانت روح الدعابة التي انطوت عليها لنحول دون إثارة تفكير القارئ وحمله على توحى الإصلاح.

مع هذا ما ادعى الملاحظ الفلسفة قط على أساس مذهب مُركّز بل كان همه أن يلاحظ أكثر من أن يمدد ملاحظاته. ولكن، إن أعورده لمذهب المسجّم المكمل، فما أعورده الاستنتاج والظنرات الحكيمة التي قد تؤلف، على نوع ما، مجموعات مسجّمة ستحاول درسها.

## الإنسان كائن اجتماعي

كان الخاطئ، وهو تسمية مدرسة أرسطو<sup>(1)</sup>، يرى في الإنسان كائناً سياسياً لا ينفصل عن المجتمع، لا معنى له وحده ولا أثر، لاستمرار السبل ولا للدفاع عن حياته أو صيانتها<sup>(2)</sup> فالإنسان لا يصير إلى الحياة الاجتماعية لحاجة مادية ملحة فقط بل أيضاً وخصوصاً في سبيل لتبادل الذهني

كيف رام الخاطئ هذا الإنسان «العالم الأصغر»<sup>(3)</sup>، العنصر الأساسي في المجتمع؟ ثلاث خصائص استوفتها في هذا المجال

## العقل

من الطبيعي أن يجعل الخاطئ، وهو انشع من المطلق، العقل حكماً في النظر إلى الأمور، فيعرض على محكّه شؤون الدين والتقاليد والسياسة. لقد وعى وعياً حلياً الساقط البارز بين مستوى الثقافة المطقية الذي يلعبه العقل البشري والمستوى الذي تشبّث به معظم الناس الذين يحزون ورءهم ثقل التقاليد السائدة والخرافات لسحيقة وشجة لوعيه هذا توجه بحمية ومطى وهراء إلى الجمهور لا ليحمّله على سدهذه الاعتقادات العارفة بالجهل وحسب، بل ليعمر بالسحرية كل ما يصدّم العقل ويأبه الذوق السليم ومن هنا كانت ثورته على المشعوذين، مفستريين كانوا أم مجمين، وعلى الأساطير والخرافات والحمافات

لقد كان على إيمان بان كل تقدم في بشر أساليب المصق وفهم الدين على حقيقته يقابله تقدم في ازدهار الفصيلة كبيرة استمرار كل مجتمع وهذا يفسر اندفاعه إلى دحض كل تأكيد عموي إلى تحرير العقل من كل وهم وهوى يؤثر على نطلعه إلى الحق!

(1) فلسفة أرسطو كما كتب بفهم عهد ذلك أي مملوكة بالأدلاطوية المستحدثة

(2) الحيوان، ج ٤، صفحة 42

(3) الحيوان، ج ١، صفحة 213

قال المحايط إن الاختبار الحسي يقف عند الظواهر<sup>(1)</sup> يشهد الواقع ويقف  
عده. والعقل وحده يتميز بين الخير والشر ويوفر النمو للبكات الشري. والعقل  
في الإنسان هو الجوهرى والأفصل<sup>(2)</sup> غير أنه معصور بمعطيات الحس ولا بد من  
تحريره أولاً وهذا لا بد من العطفة لإثارة تعقّل لدن، فيكون بالتالي لتحويل  
والحس شأنهما في توحه العقل<sup>(3)</sup>

## الأخلاق

لم يكن المحايط مصوراً اجتماعياً بارعاً فقط بل كان أيضاً مرشداً أخلاقياً.  
بيد الأثر فهو أن حسن على المرائى والمستثمرين والحسدين والمكثين وصغار  
الفسوس ما كانت انتسالية رائده بقدر ما كان الإصلاح عن طريق ردة الفعل<sup>(4)</sup>.  
بيد أنه ما اكتمل بوصف أو يقدم يجري، بل مصى إلى بعد. مصى يؤخه نحو  
الأكمل، ويرشد إلى الطرق الفصلى لتي تسمو بالبكات الشري نحو تحقيق مثله  
الأعلى في الحبة.

إن المحايط، انعامل بوحى مذهبه القائل «بأمر المعروف والنهي عن المنكر»<sup>(5)</sup>  
وصنع أكثر من فصل في السبك الحقيقى. وتخصص آراؤه المناقبة بشي، من الخيطة  
الاجتماعية ولتمسك بالمصائل التي يفر بها المسموم ومنها الإحسان والبر  
بالعود والكرم والتعاضد ولواحى الإنسانى والاعتدال في طيب اللذة وتسلط  
لإرادة على لهنوى وهذه خصائص هامة بتوطيد ركيزة المجتمع الخلقية  
وهذا الاعتدال هو سبحة الأثر بالفلسفة المشائية ورعية الحد من الإحتلال  
الحقيقى المتعشى، وهو بأسف وطبع أبي عثمان الرّاع إلى تسوية الأمور بالحسنى

(1) الحيوان، ج 2، صفحة 6

(2) التربع والتدوير على هدمش الكامل سمرد، ج 1، صفحة 43

(3) الحيوان ج 1، صفحة 207

(4) حيوان ج 1، صفحة 97

(5) أحد أصول المعتزلة الخمس

من دون اللجوء إلى العنف

والمبادئ الأخلاقية التي تستر الخاطئ في إرشاده اسمها إجمالاً من القرآن الكريم والحديث والسيرة النبوية . وقد كان على يقين بأن الإنسان لن يكون سعيداً إلا إذا سر بهدي ضميره الحي وراقب أعماله بدياربه وسمع إلى نصح المحضين من أصدقائه واعتبر كصاحب غيره<sup>(1)</sup> .

رأى الخاطئ أن الإنسان لا يشكّل وحده قائمة بذاتها بل هو جزء من كل أكبر ، أنه هر مختصر انكون<sup>(2)</sup> ، فعليه إذن أن يصلح نفسه أولاً لأن الفساد الاجتماعي ليس إلا مجموعة الفساد الفردي ، وعليه أن يحلّ السلام لا في نفسه فقط بل في مجتمعها أيضاً لأنه متصا من معه

هذه الماقيية ، الدببة الإيحاء ، كرر بها أبو عثمان إرصة لرعيه اميتفيريقية وتلية لحاجة عمية تدعم تأكيدات العمل الأولية لخير الإنسان العنث في المجتمع

## المابعية

استوحى الخاطئ ، في بقده لاجتماعي ، اختياره الشحصي بقدر ما استوحى دوقه السليم كان يرى أن انتصرف الأمش هو الذي يؤتم بطسعة والعمل عني غير تعمل . فكل ما يتعد عن الطبيعي ، أو كان صعطاً عني الاخرين ، أو كان كذباً وحباً واحتيالاً ، كان يثيرة فيرقصه

رأى مثلاً أن العرور والخدع والحل والجشع بواقص تحط من قدر الإنسان كإنسان ، فشر عنيها حملة عيفة رمت إلى إصلاح بشري حاري

لتحقيق عابته هذه اعتمد الخاطئ طريقتين محلفتين ، لكهما تنك ملان أو لاهما طريقة العير المباشر عن أفكاره بدون مواربة<sup>(3)</sup> ثم طريقة الإيحاء الموجه فهو بد

(1) البحلاء

(2) الخيون ، ج 1 ، صفة 31

(3) في أكثر من رسالة ومقدمة يقدم في الخاطئ إلى المثلوث الاجتماعي وأصور الياف

بتهكم على المعلمين والأعوان والحلاء والجهل وفي يطري من قيس ردة الفعل  
البساطة والكرم والعلم والتواضع واحترام النفس .

## المجتمع

إن المجتمع الأمثل ، كما تصوره الحافظ ، يستهدف خير أفرادة المشترك  
واردهارهم واحترام حريتهم . ولا يتم هذا إلا بالتصامم الشامل بين أعضاء  
المجتمع نأمن لاستقرار الضروري في نقطة الاطلاق ، ثم بالسطة التي توحه ،  
كالراس ، سائر لأعضاء نحو الخير المشترك وتكبح شططهم ، ثم الذين كظام  
أخلاقي يسمي الفصل في مختلف طبقات الشعب ويساعد على تطوير الإنسان  
لتحقيق برعائه غير الأرضية<sup>(1)</sup>

أما التصامم فلم يرد فيه أبو عثمان ، على ما جاء به القرآن الكريم والحكمة  
أبوناية<sup>(2)</sup> فقد كان على اقتناع تام بأن كل طالمة فردية لا بد أن تسيء إلى  
المجتمع كجسم مظم تصامم

أف موضوع السطة فقد حملة على إبداء آراء فريدة حول الإمامة و ضرورتها  
ودورها ومقاصباتها وقد دفعه إليها عدم ثقته بالإنسان اندي اعبره سيئاً بطبيعته ،  
أدبياً ، فسد الحق ، لا يفتش إلا عن لدته رعم المطهر التي يُعذب بها غريته<sup>(3)</sup> .  
ودفعه إليها أيضاً بطرته الخاصة إلى المجتمع وقد وعاه قائماً على مفترق طريق  
بين الخففة بموضوعه شي يعرضها العقل وبين الروح التي توحى إليه ناموسها .  
ولا بد أن تدلي من وسيط للانتقال من فكره الخير الأسمى إلى واجب الفرد لأحسن  
تحقيقها وهذا الوسيط هو لإمام الذي يتولى السطة<sup>(4)</sup> وقد درت فكرة المعترلة  
في جوهرها حول هذا المحور الدقيق .

( 1 ) الحيوان ، ج 2 ، صفحة 116

( 2 ) الحيوان ، ج 1 ، صفحة 42

( 3 ) رسائل ، صفحة 254-256

( 4 ) رسائل ، صفحة 271

لكن اختيار الإمام أثار معصية جديدة لدى أبي عثمان، لأن السيد المطلق الذي يقرص القابول ويوجه الجماعة نحو خيرها الأسمى يجب أن يكون حديراً بالثقة، يتحلى بالفصائل السامية. لقد شعنت هذه المسألة المحاط كما شعلت أفلاطون من قبل إلا أن صاحبها لم يتوقف، كالفيلسوف اليوناني، عند توزيع السلطة بين الرجال الدين، إن اجتماعاً، جمعوا الفصائل المطلوبة، بل اعتبر وحدة السلطة في شخص واحد لا ماص منها لتسيق الوحية العام وتحديد التبعات، فاقترح أن يولى السلطة ذلك الذي يبدو من المثل الأعلى أكثر من سواه<sup>(1)</sup>.

ورأى أن مبدأ السلطة التسلسلية الذي يفترض وجود الإمام في رأس الهرم يقوم على فكرة عدم المساواة الطبيعية بين البشر كما عني حاحه الأدبي إلى الأعلى بدون صحة العكس<sup>(2)</sup> وهذا المبدأ الذي اتحد أساساً معظم الإقصاع بدأ يتمذهب في القرون الوسطى، حتى قصص على شفه الثاني فكرة المساواة والمصلحة المشتركة بين الأدبي ولأعلى، من قيام الثورة الفرنسية

## الدين

في حق الدين، كما في سائر حقول النشاط البشري، استرشد المحاط عقبه. فهو ما اعتق مذهب المعتزلة إلا لأنه يحفظ لعقل السليم مرتبة بحسب الإيمان، لأن العصر الثاني لا ينافي لعصر الأول، بل يساعد على إكماله.

هذا التعلق الصريح بالدين مصدره اعتقاد عميق منه بأنه ليس ثمة حقيقة في المعمور إلا وتلاءم وحقيقة التعاليم المترلة من السماء. غير أن هذه التعاليم لا يجوز، في حال من الأحوال، أن تناقص لعقل لأن العقل والوحي يشقان كلاهما عن الله وهما بالتالي مترابطان متكاملان.

(1) عثر عن رأيه هذا نوع خاص في رساله حول استحقاق الإمامة وهي رسالة التي كانت، على ما يقال، سبب اتصاله بالمأسون

(2) أوحاه إليه أرسطو

لن تسرب الشئ أحياناً إلى الحاحظ ، فما ذلك قطعاً لمجرد الشك والشكك ، بل سبباً لتيقن ، لأن من يألف الشئ يتعرض للوهن والصلال<sup>(1)</sup> . إنه الشئ الأسلوبي بعينه ، شرط كل بحث وصي ، الذي ساور أرسطو من قبل ثم ديكارت وبايكون وغيرهما من بعد هو خنثهم إلى السعي وراء معين اشد وأكمل<sup>(2)</sup> .

كان مفهوم الحاحظ للذئ ، مثل مفهومه لمثلث : قوة محاطة في جو انضباط اجتماعي تتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الدفاع عن المحرومين . إنه ، بجوهره ، مظهر من مظاهر مطلقة الحاحظ برر وجوده نظرنه إلى الإنسان ككائن سيء لا يكبح بهيميه الطبيعية إلا الخوف من العقاب أو لرعية في الثواب<sup>(3)</sup> .

### نظرات في علم الاحتمام

لن لم يكن للحاحظ مذهبه الخاص في علم الاحتمام يسهدف إدخال تفسير الظواهر الاجتماعية في نظرة عامة للمعمور فقد كانت له حواطر مستثرة تناولت نفسية الشعوب وخصائصها وأثر اليه والمناخ على المجتمع يمكن تلخيصها بما يلي :

شئ المجتمعات بالكائنات الحية التي تنمو باطراد ، يفرض عليها تنوع البيئات والأوضاع السوح في التركيب والانعغال . هكذا مهتد المسبل أمام النظريات الحديثة التي نقول بأن لبنة العصرية والولادية تعرض على الأفراد عقبات وعادات وتقاليد خاصة تدو كأيها انعكاسات البيئة على الصمائر الفردية<sup>(4)</sup> .

لضالماً أعلن الحاحظ أن هوارق المدسة والإمكانات عند مختلف الشعوب إنما تحصع مواهب عريرية عند كل حس كما تحصع إلى تركيبه وإلى الحو الذي

(1) على هامش الكامل للمبرد ، ج 1 ، صفحة 84

(2) الحيوان ، ج 6 ، صفحة 10

(3) الحيوان ، ج 2 ، صفحة 88

(4) الحيوان ، ج 5 ، صفحة 326 إلى 370

يعيش فيه<sup>(١)</sup>.

ومن هنا استتبع أن كل شعب مدعو ، بحكم أوضاعه الوراثة والطبيعية ، إلى أن يشعل موقداً لا بد أن يصل إليه . وهذه الحتمية تذكر بطريقتي الحس والانداء التي شاعت في القرون الماضية ثم أحدثت مطلقيتها بالصاويل اليوم<sup>(٢)</sup> . إلا إن حتمية الجاحظ سترتها عناية إلهية تحرص دواماً على الاستجمام التام في الضام الكوني .

---

(١) لقد أثار قبل ابن خلدون بقرون إلى أثر البيئة الطبيعية في الشعوب

(٢) قال به كذلك معاصره ابن العديم الهمداني .



## خاتمة

إذا كان المحاط في حملاته على نقائص معصريه أو في وصفه أوضاع حياتهم لم يستهدف إنشاء نظام جماعي جديد، فإنه قد أشار، من قبيل ردة فعل، إلى أمور جوهرية لإصلاح الإنسان والمجتمع لقد حرّاه حملة أفكار هي في أساس المفاهيم القنوية والاجتماعية الحديثة كشرعية السطة، وحرية الإنسان الطبيعية، والتأثير البيئي، وسلطة الرئيس، وحقوق المرأة والتصامم الشرعي

ولئن لم يكن له مذهب اجتماعي مركز، أي مطلق وموحد بشكك يحسم إلى التسليم بمعطيات تقرر السلوك الحياتي، فإنه عرّض حصيلة اختبار طويل في خدمة لاستقرار الشخصي فهو إذ وصف مجتمع عصره كما هو، ساحراً من حله ونقصه أوحى صمياً كيف أراد أن يكون وهكذا يكون دشن في الطبق الاجتماعي ركائز الأسلوب العملي، أي الملاحظة والمقارنة فالقد.

لقد رأى المحاط وأرى كمن شخص من أشخاصه في بيئته الخاصة وثوبه الخاص وحركته الخاصة، فلم يعط عنهم رسماً تقريباً باصلاً، بل صورهم تصويراً واقعياً مدوناً فقد سمع وأسمع كلاً منهم يتحدث ببهتة المميرة وإنشائه بالوقوف، وقد الفارئ لا يفرع من دراسة آثاره إلا وعي دهنه ما يؤهم أنه عيش حقاً صاحبها وأبطاله على اختلاف أوساطهم

إن انمادح البشرية العامة يستمر هي هي في الجوهر حتى لو تبدلت الأشكال بدلاً ثورياً. ولقد هد المحاط، من خلال لمظهر العابر، إلى أعماق النفس البشرية حين حصائصها الملاممة في كل عصر ومصر. فالحلاء والاحتداد والخلعاب والسحفاء والمستثمرون والبصوص والمشعورون وغيرهم ممن وصفهم أبو عثمان بحالهم أحياء في ما بين وفي حيز الحاضر ولكن في ري قديم

## المراجع

لن نذكر في هذا الشب إلا أهم مرجع لعربية دعم قيمة المسرح الأحيية ولا سيما الفرنسية و الألمانية والإكبرية سي استعنا بها وذلك رعة في عدم التطويل

- الأبنهي ، المطرف في كل من مستطرف ، (القاهرة)

- ابن لباري : نزهة الألباء في طبقات الأديباء ، (القاهرة 1303 هـ)

- ابن حرم : كتاب الفصل في المنس والحس ، 5 أجزاء ، (القاهرة 1373 هـ)

- ابن حوقل : كتاب صورة الأرض

- ابن خلدون : المقدمة

- ابن حنك : وفات الأعيان وأبء الزمان .

- ابن رشيق ، العمدة ، ( القاهرة 325 هـ )

- ابن نعري : تاريخ مختصر الدول ، (بيروت 890 )

- ابن قتيبة : أدب الكاتب ، (القاهرة) .

- ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، (القاهرة 1326 هـ)

- ابن المقطبي : تاريخ الحكماء ، (القاهرة 326 هـ)

- ابن كثير : البداية والنهاية ، 14 جزءاً (القاهرة 1348 هـ)

- ابن المرتضى : ذكر المعترقة ، (حيدر آباد)

- ابن مطور : لساد العرب ، (بولاى 1300-1307)

- ابن السديم : فهرست ، (القاهرة 984 هـ)

- أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة .

- أبو حيان التوحيدى : تقریظ الحافظ

- أبو ريذه ، إبراهيم بن سيار ، النظام ، (القاهرة 1946) .

- أبو الفداء : مستطرف تاريخ البشر .
- الشعري مصالاة الإسلاميين ، (اسطنبول 1929)
- الأصفهاني (أبو الفرج) : كتاب الاعاى ، (بولاق) .
- أمين (أحمد) . صحى الإسلام ، (القاهرة 1933)
- البستاني (بطرس) - كتاب دائرة المعارف ، (بيروت 1882) .
- البعددي (عبد الدار) - كتاب الفرق بين الفرق ، (القاهرة 910 )
- البعددي (الخطيب) - تاريخ بغداد ، (القاهرة 1931) .
- البلاذري - فخر البلدان
- الثعالبي . يتيمة السهر ، 4 أجزاء (دمشق 1304هـ)
- حري (شفيق) : الخاظم معلم العقل والأدب . (القاهرة 932 ) .
- حجي خليفة كشف الطنون ، جزءان (بولاق)
- حسين (إبراهيم حسن) تاريخ الإسلام السياسي ، (القاهرة 948) .
- الرافعي عصر المأمون ، 3 أجزاء (القاهرة 1927)
- الرزكلي . الأعلام ، قاموس التراجم . 3 أجزاء (القاهرة 1928)
- أريب (حسن) التشيع معاوية في عهد العباسيين ، (المشرق 928 )
- زيدان (جرجي) - تاريخ آداب العربية ، 4 أجزاء (القاهرة 1924) .
- زيدان (جرجي) : التمدن الإسلامي ، (القاهرة 1913) .
- السمعاني . كتاب الأساب ، (1912)
- السدوي (حسن) : آداب الجاظم ، (القاهرة 1930) .
- السدوي (حسن) - رسائل الجاظم ، (القاهرة 1933)
- الشهرستاني كتب الملل والنحل ، (ليرين 1923) .
- الطبري تاريخ ، 5 أجزاء (لايد 1879-1901) .
- العراقي - المهدى الصلال ، (القاهرة 1359هـ)
- الفاحوري (يوسف) الجاظم ، (بيروت 953) .
- كراوس والفاحري . مجموعة رسائل الجاظم
- كرد علي (محمد) : رسائل البغاء ، (القاهرة 913) .
- كرد علي (محمد) : أمراء البيان ، جزءان (دمشق 1939)

- مبارك (محمد) : الجاحظ وهن القصة في البحلاء (دمشق 1940)
- مبارك (ركي) : الثر العربي في القرن الرابع الهجري
- الحرّ د . الكامن في الأدب ، (القاهرة 1324هـ)
- محيي الدين (عبد الرزاق) : أبو حيان التوحيد ، (القاهرة 1949)
- مردم (حليل) : أئمة الأدب الجاحظ ، (دمشق 1930) .
- المسعودي : مروج الذهب .
- المشرق (محنة تصدر في بيروت)
- نادر (ألبير) . فلسفة المعتزلة
- الهمداني (بديع الزمان) : مقامات ، (بيروت 994 )
- الهمداني (ابن الفقيه) : كتاب البلدان ، (لايد) .
- ياقوت : معجم البلدان ، 6 أجزاء (بيبريع 866-1870)
- ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، 7 أجزاء (سند)
- اليعقوبي . (كتاب البلدان) .



## مهرست

5	توطئة
7	الجاحظ في حياته وريته
7	في البصرة
9	في بغداد
11	عند أبي دؤاد
12	الشيخوخة
14	آثار الجاحظ
14	كتاب الحلاء
14	السبب والتبیین
16	رسالة التربع والتدوير
17	سائر الرسائل
18	أخلاق الجاحظ ونواياه
20	ما هو المجتمع الذي رصفه الجاحظ
20	نموذ الأعاجم
20	الحرية الفكرية
21	الثقافة
22	المعرفة
22	أهل الكتاب
23	البيئة الاجتماعية
25	المجتمع العباسي كما رآه الجاحظ
26	الحفل الأخلاقي

26	المستثمرون
28	المتسولون
29	البيخلاء
32	القيان
33	الغناء والخمر
34	الحفل الديني السياسي
34	الأفليات الدينية والذهرية
36	الثنائية
38	الذهرية
39	الفرق الإسلامية
39	الحشوية والناطقة
39	الرافضة
40	الأمويون
41	الشعوية
43	فئات المجمع
43	الخليفة والبلاط
44	المشعوذون
45	الأطباء
45	المنجمون
46	المفسرون
48	المعلمون
50	الكتاب
52	التجار
53	المترجمون
54	البحريون
56	المتصوفون والزهاد
56	المتكلمون
58	العامة الجاهلة

59	حول بعض وجوه المجموع
59	الخرافات والأساطير
60	الجن
62	سائر الأساطير والمعتقدات
65	الشعوب المختلفة
65	الأثر
66	الزواج
67	شعوب شتى
67	أثر البيئة
69	المرأة والحياة المنزلية
72	الحركة الأدبية
74	قيمة شهادة الجاحظ على مجتمع عصره
74	القيمة الأدبية
74	وصف الأشخاص
77	ضحك الجاحظ
78	القيمة التاريخية
79	الناقد
80	القيمة الذهبية
81	الإنسان كائن اجتماعي
81	العقل
82	الأخلاق
83	الطبيعية
84	المجتمع
85	الدين
86	نظرات لي علم الاجتماع
88	خاتمة
89	المراجع



أبو سلوم المعتزلي

